الدين واحد
والشرائع متعددة

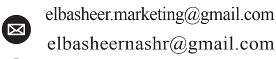
الطبعة الأولى
1441 هـ
2020 م

اسم الكتاب: الدين واحد والشرائع متعددة
التأليف: الدّكتور/ سالم عبد الجليل
المراجعة اللغوية: عبد القادر أمين
موضوع الكتاب: فكر إسلامي
عدد الصفحات: 160 صفحة
عدد الملازم: 10 ملازم
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2020/ 4169
الترقيم الدولي: 978-977-278-817-0











elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

سلسلةُ تصْحيح المفاهيم
(٣)

الدين واحد والشرائع متعددة

تأليف

الشّيخ الدّكتور/ سالم عبد الجليل

وكيلُ وزارة الأوقاف الأسبق
عضو هيئة التدريس
بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

مقدّمة

إنّ الحمد لله، نحمدُه ونستعينه، ونتوبُ إليه، ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، فإنّه مَن يهدِه الله فلا مضلّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له.

وأشهد أنْ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير.

وأشهد أنّ سيدنا ونبينا محمدًا عبدُ الله ورسوله، اللّهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه، ومَن تبعِهَم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد،

مِن المفاهيم الخاطئة التي تحتاج إلى تصويب:

اعتقادُ الكثيرين- حتّى من المثقفين- بأنّ الله تعالى اختار أكثرَ من دين للنّاس على مدى العصور والأجيال، والصّحيح الذي سنوضّحه في هذا البحث- بإذن الله تعالى- أنّ الدين الذي رضيه الله للخلق من أوّل آدم- عليه السلام- إلى أن تقوم السّاعة هو دين واحد، وهو الإسلام، لكنّ الشرائع هي التي تختلف من أمّةٍ لأمة، حسب حاجة كلّ أمّة وطاقتها، وبالتالي فهي شرائعُ متعدّدة، جاء بها الأنبياء حسب طاقة كلّ أمّة وحاجاتها.

ثمّ إنّ الدين مراتب؛ أوّلها الإسلام، ثمّ يرتقي المسلمُ فيبلغ مرتبة الإيمان، ثمّ يرتقي المؤمن فيبلغ مرتبة الإحسان، ولا يبلغها إلّا مَن عبَدَ الله حقّ العبادة، كأنّه يرى الله سبحانه وتعالى.. وسوف أبيّن هذا بالتّفصيل في فصول هذا الكتاب.

الفصلُ الأوّل: وحدة الدين.

الفصلُ الثّاني: الإسلام .

الفصلُ الثّالث: أركان الإسلام.

الفصلُ الرّابع: الإيمان.

الفصلُ الخامس: أركان الإيمان

الفصلُ السّادس: الإحسان.

الفصلُ السّابع: العبادة وأسئلة مصيرية.

وكُلّي أمل في أنْ يجد هذا العملُ القبولَ من الله– عزّ وجلّ–، وأن يؤدّي رسالته في تصحيح المفاهيم.

الدكتور/ سالم عبد الجليل

الفصلُ الأوّل

وحدةُ الدين

(١) تعريف الدين:

أوّلًا: تعريف الدِّين لغةً [١] :

كلمةُ دين تتألّف من ثلاثةِ حروف، هي:

الدّال والياء والنون، والتي تدلّ على الانْقياد والذُّل.

وجمعُها: أَدْيَان.

وردتْ كلمة الدّين بمعانٍ عديدة، فمنها:

- العادة؛ لأنَّ النّفسَ إذا اعتادت شيئًا انْقادت له.
- الطّاعة والمُلك، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢]، أي في طاعته وملكه.
- الجزاء، قال الله عزّ وجل: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[٣]، أي يوم الجزاء والمكافأة، ويقال: كما تُدِينُ تُدَانُ؛ أي كما تُجازي تُجازى بفعلك، ومنه قولُه

---

(١) انظر: مختار الصحاح ١ / ٢١٨، جمهرة اللغة ١ / ٣٧٢، معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢ / ٣١٩.

(٢) (سورة يوسف، الآية: ٧٦).

(٣) (سورة الفاتحة، الآية: ٤).

تعالى :﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾[١]، أي لمجزيّون محاسبون، ومنه الدَّيَّانُ في صفة الله تعالى.

وفعلُ دان يختلفُ معناه باختلاف ما يتعدّى به.

- فإذا تعدّى بنفسه يكون (دانه) بمعنى: حاسبه، وفي الحديث عن شداد بن أوس: عن النبي – ﷺ – قال: «الكيّس مَن دان نفسه، وعمِلَ لما بعد الموت، والعاجزُ مَن أتبع نفسَه هواها وتمنّى على الله»[٢].
- ويأتي كذلك بمعنى: ملكه، وساسَه، وقهره، وحاسبه، وجازاه. ولهذا سمّي المصر مَدِينةً لأنّها تقام فيها طاعةُ ذَوِي الأمر.
- وإذا تعدّى باللّام يكون (دان له) بمعنى خضع له، وأطاعه.
- وإذا تعدّى بالباء يكون (دان به) بمعنى اتّخذه دينًا ومذهبًا، واعتاده، وتخلق به، واعتقده.

ثانيًا: تعريفُ الدّين اصطلاحًا:

اختُلفَ في تعريف الدّين اصطلاحًا اختلافًا واسعًا، أرجح التعريفات:

الدّين هو:

الاعتقادُ بوجود ذاتٍ إلهيّة مقدسة، والخضوع لها خضوعًا مطلقًا، ذلًّا وحبًّا، رغبة ورهبة.

(١) (سورة الصافات ،الآية: ٥٣).

(٢) (أخرجه الترمذي في سننه بسند حسن، وأخرجه ابن ماجه في سننه أيضًا وأحمد في مسنده).
ومعنى قوله: من دان نفسه ،أي: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة).

وفي ثقافتنا ومعتقدِنا الإسلامي: هذه الذّات هي الله الأحدُ الفرد الصّمد، الذي لم يلدْ ولم يولَد، ولم يكن له كفوًا أحد. (وسيأتي تفصيلُ ذلك بعد).

(٢) ما يترتّبُ على اعتناق الدّين:

١- الإيمانُ بوجود إلهٍ خالق للكون، مالكٍ له، مدبّر لشئونه.

٢- التمييزُ بين عالم الأرواح وعالم المادة.

٣- وجودُ طقوس تعبّدية يقصد بها تعظيمُ هذا الخالق والتقرّب إليه.

٤- وجودُ شريعةٍ من الإله تشمل الأخلاقَ والأحكام التي يجب اتّباعها والالتزام بها.

٥- الإيمانُ بالبعث بعد الموت والجزاء الأخروي.

(٣) مهمّةُ الإنسان في الحياة: العبادةُ وعمارة الأرض.

لقد خلقَ الله- تعالى- الإنسان، وسخّر له كلّ ما في الكون ليقوم بمهمّتين:

الأولى: عبادتُه وحدَه دون سواه.

الثانية: عمارةُ الأرض، وهي من العبادة.

ولقد نصّ القرآنُ الكريم على هاتين المهمّتين.

فقال سبحانه عن المهمّة الأولى (هي: عبادة الله تعالى وحدَه دون سواه):

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[1]. وقال سبحانه وتعالى عن المهمّة الثّانية:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[2].

فقولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي: خلقكم لعمارتها.

«والاستعمار طلبُ العمارة، والطلبُ المطلق من الله تعالى يدلّ على الوجوب»[3].

وعمارة الأرض صورةٌ من صور العبادة، وسيأتي تفصيلُ ذلك في مبحث العبادة.

(٤) الإنسانُ مفطورٌ على العبودية وحبّ الحياة:

ومِن أجل ذلك خلقَ الله- تعالى- الإنسانَ مفطورًا على معرفته وتوحيده، وعلى عبادته، وإنْ كان يجهل كيفيّة عبادته- سبحانه-، وما الذي يُرضيه أو يسخطه، فأرسل الله الرسلَ وأنزل الكتب ليبينوا للناس كيف يعبدون ربهم ويرضونه ويتجنّبون سخطه سبحانه وتعالى، ويرشدهم إلى الأخلاق القويمة والمعاملات الحسنة التي تضمن لهم العيشَ بسلامٍ وأمان، وتهيئ لهم

---

(١) (سورة الذاريات: ٥٦: ٥٨).

(٢)) (سورة هود: ٦١).

(٣)) تفسير القرطبي - (٩ / ٥٦).

حياةً كريمة يعرف فيها كلّ إنسان ما له وما عليه فتتحقّق السعادة في الدنيا والآخرة لمن يلتزم بأداء ما عليه، وعدم المطالبة بأكثر من حقّه.

ومَن لم يعبد الله لا بدّ وأن يعبد سواه، فقد يعبد إلهًا من خياله كمَن عبدوا الأصنام، وقد تصبح شهوة من شهواته إلهه.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية، الآية: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [سورة الفرقان، الآية: ٤٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ– رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ– ﷺ–: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ**»[1].

كما أنّه مفطورٌ على حبّ الحياة وعمارتها، والتّلذذ بما فيها.. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[2].

فالإنسانُ مفطورٌ على العبودية ليقوم بمهمّة عبادة الله وحده.

ومفطورٌ على حبّ الحياة، وما فيها؛ ليعمرها.

(١) صحيح البخاري– حسب ترقيم فتح الباري – (٨/ ١١٥).

(٢) (سورة آل عمران: ١٤).

(٥) عناصرُ الدين:

الدّين يشمل كلّ ما يُعبد اللهُ به، من:

عقائد وأخلاق وعبادات وتشريعات

فالدّين:

هو: الإيمان وأركانه (العقائد).

وهو: وهو الآداب والقيم والأخلاق.

وهو العبادات (الشعائر التعبدية).

وهو التّشريعات (الحلال والحرام والقوانين والمعاملات التي تنظّم المجتمع بكافّة نظمه)، والتي تحقق العدالة والحرية الإنسانية، وتحفظ كرامة الفرد، وتيسّر أموره الحياتية، وتبنّي قواعد العلاقات الاقتصادية داخليًّا وخارجيًّا، وتحرصُ على نظام التكافل الاجتماعي، واحترام القانون والنظام العام، وتراقب السلوك الاجتماعي والآداب العامة... إلخ.

ومرادفه في القرآن الكريم: البر، كما في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[١]. فهذه خمسُ عشرة خصلة انتظمت في أربعةِ جوانب، أو عناصر.

(١) (سورة البقرة، الآية :١٧٧).

العنصرُ الأوّل: العقيدة (آمن):

بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيّين.

العنصرُ الثّاني: الأخلاق: (آتى المال على حبّه، كرم وجود):

ذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب. وهذا رمزٌ على باقي الأخلاق الفاضلة التي جاء النبي- ﷺ- ليرسي دعائمها، «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1].

العنصرُ الثّالث: العبادات:

أقام الصلاة،آتى الزكاة. وفي ذكر أهمّ ركْنين؛ إشارة إلى كلّ ما افترض اللهُ علينا من الشعائر التعبدية، كالصّيام والحج وقراءة القرآن والذكر، وتعلّم العلم... إلخ.

العنصرُ الرّابع: المعاملات:

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾

وفي ذكر الوفاء إشارة إلى ما ينبغي أنْ يكون عليه الإنسانُ المسلم في معاملتِه لغيره من حفظ الأمانات والصدق في المعاملة والوفاء بالعهود.

وليس هنالك عهدٌ أهمّ من العهد الذي أخذه الله- تعالى- علينا؛ وهو إقرارنا بوحدانيّته سبحانه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[2].

---

(١) (سنن البيهقي الكبرى - (١٠ / ١٩١).

(٢) (سورة الأعراف، الآية: ١٧٢).

ويتبع ذلك إقرارُنا بنبوة محمّد- ﷺ-، واتّباع هدْيه في المعاملات، كما نتبعه في العقائد والعبادات والأخلاق. وتأمّل ختام الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي من عاش بالدين جملةً، وأقامه في كلّ جوانبه (عقيدة وخلقًا وعبادة ومعاملة) هو الصّادق في ادّعائه الإيمان، وانتمائه للإسلام.

أمّا مَن قصّر في جانبٍ من هذه الجوانب كان ادّعاؤه كذبًا وباطلًا، يبقى له وصف الإسلام وحسابه على الله.

فلا تصحّ عقيدة لا تثْمِر خلقًا حسنًا.

كما لا تكفي عقيدةٌ وخلقٌ حَسَن دونَ العبادة وأداء الشعائر.

ولا تكفي الثلاثة إذا لم يلتزم المسلمُ بالحلال والحرام.

وما أجملَ قولَ المصطفى ﷺ:

«**مَن غشّ فليس منّا**»(١).

وقولُه ﷺ:

«**لا إيمان لمن لا أمانةَ له، ولا دين لمن لا عهدَ له**»(٢) .

وقوله ﷺ:

«**دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خِشَاشِ الأَرْضِ**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٣/ ٦٠٦) بسند حسن صحيح.

ورواه مسلم في صحيحه (١ / ٦٩) بلفظ: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**».

(٢) انظر: مسند أحمد بن حنبل - (٣/ ١٣٥). وقال محققه (شعيب الأرنؤوط): حديث حسن.

(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري (٤ / ١٥٧) .

وقوله ﷺ:

«**لا يدخل الجنة مَن لا يأمن جارُه بوائقه**»[1].

وقوله ﷺ:

«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَه»[2]. ولقد عاش المسلمون دهورًا طويلة بهذا المفهوم الشّامل للدين، فعاشوا عيشة متوازنة سعيدة طيبة، وانتشر بهم دين الله- عزّ وجلّ- في ربوع الدّنيا، وعمروا الحياة حتى صاروا مثالًا يُحتذى.

فلمّا توالت القرون، وجهل كثيرٌ من أبناء المسلمين هذا المعنى، وفصلوا بين جوانب الدين، كتب الله تعالى عليهم الخزيَ كما كتبه على بني إسرائيل من قبلهم، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3].

(٦) الدينُ واحد، والشّرائعُ متعدّدة:

الدّينُ بهذا المعنى الشّامل الذي أوْضحناه سابقًا هو المنهجُ الذي رضيَه الله تعالى للخلق من لدن آدم- عليه السلام-، وإلى أنْ تقوم السّاعة. فآدم- عليه السلام- (أوّل نبي) أهْبِط إلى الأرض، وتلقّى منهجًا يشمل العقيدةَ والخلق

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم (١ / ١٦١).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري (١ / ١٦٧) . صحيح مسلم (٦ / ٥١).

(٣) (سورة البقرة، الآية :٨٥).

والعبادة والمعاملة، وهو الهدَى الذي أشار الله إليه بقوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[١].

وسارَ النّاس على هذا المنهج قرونًا عشرة، حتّى أضلّهم الشّيطان، وزيّن لهم عبادة الأصنام؛ (ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر).

وهذه الأسماء الخمس لرجالٍ صالحين سوّل الشّيطان للناس بعد موتهم أنْ يجعلوا لهم صورًا ليتذكّروهم ويقلّدوهم في العبادة، ثمّ سوّل لهم بعد مرور الزمن عبادتها.

فأرسل الله- تعالى- نوحًا، وهو أوّلُ رسول إلى أهل الأرض يدعو الناس إلى الله تعالى.

وتتابع إرسالُ الرّسل، كلّما نسيَ الناس؛ أرسل الله- تعالى- مَن يذكّرهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٢]. حتّى ختم الله- تعالى- النّبوات بمحمّد ﷺ، وذكره ربّه بأنّه أوحى إليه كما أوحى من قبل إلى إخوانه الأنبياء.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٣].

---

(١) (سورة البقرة، الآيتان :٣٨، ٣٩).

(٢) (سورة المؤمنون، الآية: ٤٤).

(٣) (سورة الشورى، الآية: ٣).

بلْ قال الله- تعالى- مؤكّدًا وحدة ما أوحى به إلى الأنبياء، وهو ما يؤكّد به وحدة الدين بين كلّ الأنبياء، ولكلّ البشر:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾[1].

فالدّين الذي رضيه الله للخلق، وأنزل به الكتب، وأرسل به الرّسل لجميع البشر، ولكلّ الأمم هو دين واحد، اسمه الإسلام.

أمّا الأمم فسُمّيت بأسماء مختلفة، لنسبةٍ تاريخية أو غيرها، إلّا أمّتنا- أتباع محمّد، عليه الصّلاة والسلام- فإنّ الله تعالى شرّفنا، وجعلنا ننتسبُ إلى ديننا فسمّانا المسلمين قبلَ أن نخلق، وألهم إبراهيم- عليه السّلام- أن يدعو بعد انتهائه من رفْع قواعد البيت الحرام، وكان من دعائه كما ذكر الله- تعالى- في كتابه العزيز: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (سورة البقرة، الآيات: ١٢٧ : ١٢٩).

الأممُ السابقة سُمّيت بأسماء مختلفة لنسبة تاريخية أو غيرها..

---

(١) (سورة الشورى، الآية: ١٣).

أمّا أمّة محمّد– عليه السّلام– فسمّيت: الأمّة الإسلامية نسبة لدينها.

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (سورة الحج، الآية ٧٨).

أمّا غيرنا فأسماؤهم ليستْ على أساس دينهم.

فبنو إسرائيل هُم جميع أبناء يعقوب عليه السّلام، جاء موسى ودعاهم إلى الله تعالى، ثمّ خرج بهم من مصر وذهب للقاء ربّه، فلمّا رجع وجدهم يعبدون العجل، فاختار سبعين رجلًا لميقات الله تعالى، وكانوا ممّن لم يشاركوا في عبادة العجل، وهناك أعلنوا توبتهم، وقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾،(سورة الأعراف، الآية: ١٥٦) أي رجعنا وتبنا.

ومِن ساعتئذٍ أطلق عليهم اليهود.

أتباع موسى– عليه السّلام– كان يطلق عليهم بنو إسرائيل، حتّى اعتذر بعضهم عن عبادة العجل؛ بقولهم: إنا هُدْنا إليك؛ فأطلق عليهم اليهود.

وجاء عيسى فدعا اليهودَ إلى العودة إلى عبادة الله تعالى وحده بعدما أشركوا وعبدوا نبيًّا اسمه: العزير، وحرّفوا التوراة، فعندئذ قال عيسى– عليه السّلام– كما أخبر الله تعالى: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ (سورة الصف ،الآية: ١٤).

فلمّا قال الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أطلق عليهم النّصارى، وقيل لأنّه– وأتباعه– عاشوا في قرية اسمها: النّاصرة.

أطلق على أتباع عيسى- عليه السّلام- اسم: النصارى؛ لأنّهم ناصروا عيسى عليه السّلام عندما تخلى عنه اليهود، وعادوه.

لكنّ الدين الذي هو الإسلام هو المنهج الذي خوطبوا به جميعًا، وإبراهيم- عليه السلام- عندما انتهى من رفع قواعد البيت، ومعه ابنه إسماعيل، ابتهلا إلى الله تعالى أن يجعلهما مسلمين، وأن يجعل من ذريتهما أمّة مسلمة، كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (سورة البقرة، الآية: ١٢٨)، فاستجاب الله دعاءهما، وجعلهما مسلمين، وجعل من بني إسماعيل الأمّة التي أكرمها الله تعالى بالإسلام دينًا كغيرها من الأمم، وأكرمها باسْم أمّة الإسلام تمييزًا لها عن كلّ الأمم. وكان لإبراهيم الشّرف حيث ألهمه الله- تعالى- ودعا أن نكون مسلمين، فسمّانا الله المسلمين استجابة لدعوة إبراهيم، قال تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ** ﴾ (سورة الحج، الآية ٧٨).

والضّمير في قوله تعالى: هوّ سماكم المسلمين، إمّا أن يكون راجعًا إلى الله تعالى، أو إلى سيدنا إبراهيم- عليه السّلام- بإلهامٍ من الله تعالى .

ودعا إبراهيم جميعَ أبنائه إلى الإسلام- لا غير-، وكذلك يعقوب دعا أبناءه إلى الإسلام؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ

ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (سورة البقرة، الآية :١٣٠: ١٣٢).

ولم يأتِ نبي بعد إبراهيم إلّا من ذرّيته، من إسحاق وإسماعيل. فمن إسحاق جاء يعقوب الذي هو في العبرية: (إسرائيل)، ومن يعقوب كلّ بني إسرائيل أنبياء، وغيرهم. ومن إسماعيل كان العرب، ومن العرب كان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ومما يؤكّد أن الدين واحد، وأنّه الإسلام لا غير؛ ما جاء على لسان نوح عليه السلام: ﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (سورة يونس، الآية: ٧٢).

وما جاء على لسان موسى– عليه السلام– إذْ قال لقومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ (سورة يونس، الآية: ٨٤).

وهؤلاء سحرةُ فرعون يكْرمُهم الله تعالى بالهداية، ويتوعدهم فرعون بالقتل والصّلْب، فيدعون ربهم– عزّ وجلّ– قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٢٦).

بل وفرعون نفسُه عرف ما كان يدعو إليه موسى، يدلّ عليه قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (سورة يونس، الآية: ٩٠).

وهذا سليمان- عليه السلام- يدعو أهل سبأ إلى الإسلام: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ (سورة النمل، الآية: ٣٠، ٣١)، وتقول بلقيس ملكتهم: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (سورة النمل، الآية: ٤٤). حتى ختم الله أنبياء بني إسرائيل بعيسى عليه السّلام، فدعا إلى الإسلام، فكفروا، فلما أحسّ منهم الكفر؛ قال لهم- كما حكى القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران، الآية: ٥٢).

الخلاصة:

الدين الذي اختاره الله- تعالى- وارتضاه للبشرية جمعاء، من لدن آدم إلى قيام الساعة، هو الإسلام.

لكنْ لسائلٍ أن يسأل: ما تقول في قول الله تعالى في سورة الكافرون: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾؟. نقول هذا معناه: لكُم منهجُكم ولي منهجي؛ فالدّين هو المنهج، في المعنى اللّغوي، ولهذا يقول الناس: أديان على المعنى اللغوي.

أمّا على المعنى الاصْطلاحي فالدّين واحد كما سبق، والتّعبير الأصح: رسالات، وقال رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاس بِعِيسَى ابْن مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[1].

(١) صحيح البخاري (٤ / ٢٠٣).

(٧) تعدّدُ الشرائع:

لقد ذكرنا أنّ الدين واحد، وعناصرُ الدين- كلّ دين- المكوّنة له أربع؛ عقائد وأخلاق وعبادات وتشريعات.

عناصر الدين الأربع: (العقائد والأخلاق والعبادات والتشريعات) لا تنفكّ أو تنفصل بعضها عن بعض، مثلها مثل عنصري الهيدروجين والأوكسجين المكوّنين للماء (يد٢أ ـ H2O).

عُنصرا العقائد والأخلاق لا يختلفان من جيلٍ لجيل، ولا مِن أمّة لأخرى، ولا من نبيّ لآخر، فالكلّ كان يدعو إلى توحيد الله تعالى، وتنزيهه عن الشريك والولد، وتنزيهه عن كلّ ما لا يليق بكماله سبحانه وتعالى، كما دعا الجميع إلى عبادته وحده دون سواه، والكلّ كذلك كان يدعو إلى مكارم الأخلاق.

أمّا العنصران الآخران: العبادات والتشريعات، فيتّحدان ويتّفقان في أصولهما، ويختلفان في صورهما من أمّة إلى أمّة، ومن نبي إلى نبي.

فالصّلاة مفروضة على كلّ الأمم، كما قال الله تعالى على لسان سيدنا عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ (سورة مريم، الآية: ٣١)، لكن ربما اختلفت هيئتها واختلفت عدد ركعاتها... إلخ.

كذلك الصيام، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾، (سورة البقرة، الآية: ١٨٣). لكن ربما اختلف من حيث عدد الأيام والكيفية .

والحجّ قد علّمه الله تعالى لإبراهيم، وتوارثه الأنبياء من بعده، قال تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، (سورة البقرة، الآية: ١٢٨). لكن ربما اختلفت المناسك اختلافًا طفيفًا.

والتّشريعات مثلُ ذلك، فقد اتّفقت الرّسالات كلّها، والشرائع جميعًا، على وجوب التّعامل بالمعروف وعدم أخذ المال من الغير إلّا بالتراضي، ونظّمت أطر التجارة، وما يتعلق بالزراعة والبيع والشراء، وما إلى ذلك، لكن اختلفت التّفاصيل من رسالة لأخرى حسب احتياجات الخلق.

فالزّواج- مثلًا- على عهد أبينا آدم كان له نظام، لكن على حسب المتاح، فلمّا كثر النسل وضعت الضّوابطُ كما هي عليه الآن، هذا الاختلافُ في صور العبادات والمعاملات هو ما سماه الله تعالى الشرعة والمنهاج، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (سورة المائدة، الآية: ٤٨).

فالدّينُ واحد، والشّرائعُ متعدّدة

الفصلُ الثّاني

الإسلام

(١) تعريف الإسلام:

للإسلام معنى لغوي، وله معنى آخر اصطلاحيّ؛ فأمّا اللّغوي: فمعناه الاستسلام والخضوع.

وهوَ بهذا المعنى يدخل فيه جميعُ الكائنات، قال تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ (سورة آل عمران، الآية: ٨٣)، والمعنى: استسلم وانقاد وخضع وذلّ، وكلّ مخلوق بلا استثناء فهو مُنقادٌ مستسلم؛ لأنّه مجبول على أشياء لا يقدر على مخالفتها[١].

أقول: حتّى السّموات والأرض، فقد استسلمتا لله وخضعتا، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ**﴾ (سورة فصلت، الآية: ١١). وكلّ مَن في السّموات ومن الأرض يسجد لله سبحانه، الشموس والأقمار، والأشجار والبحار، والجبال والدواب، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ**

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/ ٥٣١).

ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (سورة الحج، الآية: ١٨)، وما من شيء خلقه الله تعالى إلا وهو يسبح بحمده، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٤٤).

معنى الإسلام اللّغوي: الاستسلام، والخضوع، والانقياد لله تعالى

وأمّا المعنى الاصطلاحي: فهو كما عرّفه رسولُ الله- ﷺ- وقد سأله جبريل، عليه السّلام، كما في حديث **عُمَر بْن الْخَطَّاب قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ- ﷺ- ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ- صلّى الله عليه وسلم- فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ- ﷺ-: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ**

تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِى الْبُنْيَانِ». قَالَ: ثمّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثمّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِى مَنِ السَّائِلُ؟». قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1].

فالإسلام إذًا كما عرّفه رسولُ الله ﷺ: **«أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج بيت الله الحرام (إن استطعت إليه سبيلًا)**.

ويدخل في الإسلام:

مَن شهد أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا رسول الله بلسانه،

وأقرّ بوجوب الصّلوات الخمس، ووجوب الزكاة، ووجوب صيام رمضان، ووجوب حج البيت، وحسابه على الله.

ونشهدُ بالإسلام لَمن أقرّ بهذه الخمس، ولا علاقة لنا بما في قلبه، ولا يخرج من هذه الدّائرة إلّا إذا أنكر ركنًا من هذه الأركان.

(٢) عالميةُ الإسلام:

لقد بعث الله- تعالى- نبيّه محمدًا، ﷺ، برسالة عامّة وشاملة لجميع الناس في كلّ زمان ومكان، لا يستثنى مِن ذلك أهلُ زمانٍ، ولا يستثنى أهلُ مكان، ولا يستثنى من ذلك بشرٌ للونه أو لجنسه أو للغته.

ذلك لأنّ محمدًا- ﷺ- خاتم النبيين، فلا نبيّ بعده، فأرسله الله تعالى لجميع الناس في كلّ زمانٍ ومكان، خلافًا لكلّ الأنبياء والرسل؛ حيث كان كلّ نبي يُبعث لقومه في مكان محدد وزمان معين.

---

(١) صحيح مسلم- مشكولٌ وموافق للمطبوع- (١ / ٢٨).

فقد روى البخاري في صحيحه: عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ**»(١).

ورواه مسلم أيضًا، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ**»(٢).

صدّق ذلك القرآن الكريم، ووردت العديدُ من الآيات الدالة على هذا، حتّى إنها نزل أكثرها على النّبي - ﷺ - في مكّة، على الرغم من أنّه كان مستضعفًا ومحارَبًا، ولم يكن يستطيع أن يبلّغ دعوته لكلّ الناس، ممّا يؤكّد على أن:

عالمية الإسلام من الأمور الثابتة التي لا تقبَلُ الجدل، بل مَن أنكرها كان مكذّبًا لصريح القرآن الكريم.

(١) صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري- (١ / ١١٩).

(٢) صحيح مسلم- مشكول وموافقٌ للمطبوع- (٢ / ٦٣).

ومِن الآيات الدالّة على ذلك:

قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ سورة الأعراف، الآية:١٥٨. ولو قال سبحانه: قل يا أيّها الناس وفقط دون لفظ جميعًا، لما دلّ على شمول دعوة الإسلام لجميع المكلفين؛ لأنّ لفظ الناس يُراد بها الجماعة من الناس، وأقلّ من ذلك فتطلق على الرجلين من الناس، وعلى الجماعة الصغيرة منهم، كما جاء في قصّة الرجلين اللذيْن قالا لأصحاب رسول الله –ﷺ– إنّ أبا سفيان ومَن معه مِن جند قريش قد جمعوا لكم فاخشوهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

فلفظُ النّاس الأوّل يُراد به رجلان، والثاني يُراد به جماعة الناس الذين تجمّعوا لحرب النبي –ﷺ– وأصحابه في أُحُدٍ وبعدها، فجاءت كلمة جميعًا لتؤكّد شمول الدين لكل الأفراد بلا استثناء، ومما يؤكّد هذا– أيضًا– قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة سبأ، الآية: ٢٨)، فلاحظ لفظ كافّة، ومفهومَه الشمول. ومثله قول الله تعالى: العالمين (أي: كلّ الناس)، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ سورة الأنعام، الآية: ٩٠. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة يوسف،

الآية:١٠٤). وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ سورة ص، الآية:٨٧. وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ سورة القلم، الآية:٥٢.

فلاحِظْ لفظ «للعالمين» في الآيات الكريمات تدرك أنّ دعوة النبي الكريم لكلّ المكلفين بلا استثناء.

وبهذا يتّضح أنّ:

دعوة النبي - ﷺ- عامّة للزمان كلّه، وللمكان كلّه، ولكلّ الأفراد، لا يستثنى من ذلك أهلُ زمان وإنْ تباعد بهم الزمان، ولا يستثنى أهلُ مكان وإنْ تباعدت الديارُ وطالت المسافات، ولا يستثنى من ذلك بشرٌ للونه أو لجنسه أو للغته.

وعلى المسلمين تبعةُ تبليغ دعوة الله تعالى لجميع الخلق، وعليهم يقعُ عبء التبليغ بالقدوة الحسنة قبل أن يكون بالكلمة.

والعجيبُ أنّ جميع هذه الآيات التي تحدّثت عن شمول الزمان والمكان والأفراد وردت في سور مكيّة، على الرّغم من أنّ النبي - ﷺ- كان مُضطهَدًا في مكة، ولم يكن يستطيع أن يبلغ دعوته لكلّ الناس، مما يؤكّد أنّ الإيمان بعموم دعوة الإسلام جزءٌ من عقيدة المسلم لا يقبل الجدل، ومَن أنكره يكون مكذّبًا لآيات القرآن الكريم الصريحة. ويوم أن عقدَ النبي الكريمُ الصّلحَ مع أهل مكة (صلح الحديبية سنة: ٦هـ)، شرع في تبليغ الدّعوة للملوك والأمراء في شتى بقاع الأرض، وأرسل رسله هنا وهناك لتبليغ دعوة الله تعالى. ولحقَ النبيُّ الكريم بالرفيق الأعلى، وأتمّ مِن بعده الخلفاءُ

المسيرة فانطلقوا في ربوع الدنيا ينشرون دين الله تعالى، وسارَ على نهجهم مَن بعدَهم يفتحون القلوب للدعوة بالخلق الطيب والمعاملة الحسنة، فمَن وقف في طريقهم من الطّغاة وحاربهم؛ تعاملوا معه بالسيف، فانتشر دين الله تعالى في الأرض بالقدوة الطيبة، ولم يستعمل السّيف لفرض الدين، بل لإفساح الطريق أمام الدعوة والدعاة إلى الله تعالى، وشعار الدّعاة في كلّ جيل قولُ الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة، الآية:٢٥٦، هو كذلك شعار ربعيّ بن عامر (من الصحابة)؛ حيث قال لرستم قائد جيش الفرس في القادسية، وهو يسأله قبل المعركة: ما الذي جاء بكم؟ فيكون الجواب: «الله ابتعثنا لنخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ومِن ضيق الدنيا إلى سعتها. ومِن جور الأديان إلى عدل الإسلام. فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمَن قبله منّا قبلنا منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه. ومَن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظّفر»[1]. ويبقى على المسلمين في زماننا هذا أنْ ينشروا دين الله تعالى في ربوع الأرض بالقدوة الحسنة والمعاملة الطيبة، بعد أن يقيموا دين الله– عزّ وجلّ– في أنفسهم، وإلّا كانوا فتنة لغيرهم، وقد علمنا الله تعالى أن ندعوه بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ سورة الممتحنة، الآية:٥. والفتنة أنْ ندعو إلى إقامة الإسلام ونحن لا نطبقه سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الأمم والجماعات.

---

(١) انظر: المفصل في شرح الشروط العمرية – (١ / ٢).

(٣) شمولُ الدّين لجميع مناحي الحياة:

نعني أنّ الدين جاء شاملًا لكلّ ما يحتاجه المسلم في حياته بلا استثناء، لم يترك صغيرةً ولا كبيرة في أيّ جانب من الجوانب إلّا وضع لها أصولًا نرجع إليها مهْما تعدّدت الفروع، ومهما كثرت المستحدثات، ولما قال مستشرق لأحد شيوخ الأزهر يومًا على سبيل التهكّم: تقولون دينكم ما ترك لكم شيئًا، وكتابكم– القرآن– فيه كلّ شيء؟! قال الشيخ: نعم. فقال المستشرق: فقل لي، كم رغيفًا يخْرج من إردبّ القمح؟ فأجابه العالم إجابة عمليّة؛ حيث اتّصل بأقرب مخبز، وسأله نفسَ السؤال، فأجابه من له خبرة ودراية بالخبز، فاعترضَ المستشرق وقال: سألتك أنت لتجيبني من القرآن! قال العالم: وما أجبتك إلّا من القرآن. فقال المستشرق: كيف؟ فقال العالم: قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١].

وأثِرَ عن أبي بكر– رضي الله عنه– قوله: لو ضاع مني عقالُ بعير لوجدته في كتاب الله. وذهب رجل يهوديّ إلى سلمان الفارسي– رضي الله عنه– فقال له: «**قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كلّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ؟!!، فأجابه سلمان قائلًا: أَجَلْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لغَائِط أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ**»[٢]، ومقصوده: أن الله تعالى علمنا كيف نقضي حاجتنا (البول والغائط).

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٧.

(٢) انظر: صحيح مسلم (١ / ١٥٤).

وإنْ قال قائل: لم يرِدْ بصريح القرآن آدابُ الخلاء، ووجوبُ الاستنجاء، وكيفيته؟ نقول له نعم، لكن قد وردَ بالسّنة الصحيحة، وقد قال الله تعالى في القرآن: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[1].

وليس من المعقول أن يتكلّم اللهُ- عزّ وجلّ- في الحيضِ ويدع الكلام عن الأمور العظيمة كسياسة الأمم ونظام الحكم والتشريع ومعاملة المسلمين لغيرهم.. إلخ.

وسبق أنْ قلنا: إنّ الدين يشمل العقيدة والخلق والعبادة والمعاملة، ومَن بيّن ووضّح لنا العقيدة والعبادة بيّن ووضح الخلق والمعاملة والحلال والحرام.

والمسلمون مطالَبون بأنْ يتعاملوا على أساس شرع الله الحنيف في شتى مجالات الحياة.

وإذا قلنا إنّه لا يحلّ للمسلم أن يأخذَ عقيدته إلّا من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكذا العبادة، فلا يحلّ له- أيضًا- أنْ يأخذ منهاجَ حياته ولا نظام معيشته إلّا من الكتاب والسنة.

ولا عذرَ لمعتذر بأنّ الدين ليس فيه منهاج حياةٍ مُتكامل ولا نظام حكمٍ واضح؛ لأنّ هذه المقولة باطلة قطعًا.. بل الحقّ أنّ الشّرع الحنيف جاءَ

(١) سورة الحشر، الآية:٧.

واضحًا شاملًا لكلّ ما يحتاجه المسلمون في أمور حياتهم ومعاشهم، مصداقُ ذلك من القرآن الكريم قولُ الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1]. وقولُه الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

ومصداقُه من الواقع، تلك الدّولة التي أسسها النبي الكريم ﷺ، ووضع النظام الأخلاقي الكامل والنظام القضائي العادل والنظام الاقتصادي الآمن والنظام الجهادي الذي يملك معه أن يؤدّب المعتدي، ويصون البلاد والعباد من اعتداء المعتدين.

وليس من حقّ أحدٍ أن يقول: شخصُ رسول الله كان معجزة، فلا يمكن أن نقيس عليه؟ نقول: لو أن المسيرةَ وقفت من بعده لربّما كان للقول نصيبٌ من الصحة؛ إنما سار من بعده الخلفاء الراشدون، بل وغيرهم ممن ساسوا الدنيا على أساس الدين، وحكموا الناس بشرع الله المبين، فلمّا ترك الناس التحاكم إلى شرع الله، وأخذوا بالقوانين الوضعية، وطبقوا النّظم البشرية في السياسة والحكم والأخلاق والاجتماع؛ فسدت حياتُهم وضعف سلطانهم، وكانت النتيجة الحتمية أنْ ضاعت دولتهم، ولم يعد في الأرض إلّا تجمّعات لمسلمين تُفرَض عليهم القوانين، ولا يملكون إلّا السّمع والطاعة، فأذلّهم الله تعالى بسبب تركهم لكتابه، وابتعادهم عن سنة نبيّه ﷺ.

(١) سورة الأنعام، الآية:٣٨.

(٢) سورة النحل، الآية:٨٩.

وبعد، يبقى أن أسوق جزءًا من آية في كتاب الله تدلّ على شمول الدين للمبادئ التي يحتاج إليه المسلم في حياته، أعني قول الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1]. والكمال يقصدُ به الكيف، والتّمام يقصد به الكمّ والعدد. والمقصود: لو احتاج المسلمون في أيّ زمان، أو في أيّ مكان لألفِ قانونٍ في شتى نواحي الحياة المختلفة لوجدوها، أو وجدوا لها أصولًا يرجع إليها المجتهدون من أئمة الإسلام.

ولهذا فتح الإسلامُ بابَ الاجتهاد لبحْث المستجدّات وفق الأصول والثوابت في الكتاب والسنة، ولا يغلق بابُ الاجتهاد ما دامت هناك حياةٌ على ظهر الأرض.

وهذه المسألة (مسألةُ اشتمال القرآن والسّنة على جميع ما يحتاجه الإنسانُ من نظم وقوانين) يسلم بها الكثيرون، لكنّ البعض- حتّى من أبناء المسلمين- يعترض بأنّ هذه النظريات وتلك القوانين مرّ عليها أكثرُ من ألفٍ وأربعمائة عام، معنى ذلك أنها لم تعدْ صالحة للتطبيق لاختلاف الزمان عن الزمان الذي نزلت فيه، فضلًا عن اختلاف المكان، وأوضاع الناس. ولهؤلاء نقول: إذا كنتم تؤمنون بأنّ القرآن كلام الله تعالى أصلًا فسدَ اعتراضكم؛ لأنّ الذي أنزلَ الكتابَ وأوحى إلى محمد- ﷺ-، وألهمه السّنة قولًا وفعلًا وتقريرًا؛ هو الله العليمُ الخبير الذي خلق الإنسان وعلّمه البيان،

(١)) سورة المائدة، الآية:٣.

وهو الأعلم بما يصلحه وبما يفسده، وهو الأعلمُ بما يناسبه على مرّ العصور والأزمان، ثمّ إنّ الله تعالى منزل الكتاب هو الذي شهد لكتابه بالكمال، أي بالصّلاحية لما فيه، ومناسبته لكلّ زمان ومكان، فمن زعم أن شرع الله لا يصلح لزماننا هذا فقد كذّب اللهَ تعالى وخطّأه؛ ولذا وجب على مَن تطرّق إلى ذهنه شيء من هذا أنْ يتوب إلى الله تعالى، وأن يرجع عمّا هو فيه، وإلّا فليعلم أنّه إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان.

ويجبُ على المسلم أن يأخذ بأحكام القرآن وآدابه كلّها، ولا يقع في مثل ما وقع فيه أهل الكتاب الذين ذكَرَهم الله في كتابه وتوعّدهم بالعذاب لأنّهم آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا بالبعض الآخر، فقال سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وعلى المسلم أن يجتهدَ في تطبيق ما أمكنه من أحكام القرآن وآدابه، مستغفرًا ربه عن كلّ ما لم يفعله لضعفه وبشريّته.

(٤) تكاليفُ الإسلام ثلاثة:

تكاليفُ الإسلام كثيرة، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- فرديّة: كإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وصدق الحديث وأداء الأمانَة وترك الكذب والغشّ والخيانة.. إلخ. وهذا النّوع من التكاليف يلزم كلّ فردٍ القيامُ به، ولا عذرَ له في التقصير فيه أو تركه.

---

(١) سورة البقرة، الآية:٨٥.

٢- جماعيّة: كصلاة الجمعة، وصلاة الجماعة، ولا شكّ أنّ هذا النوع من التكاليف لا يلزم الفرد إنما يلزم الجماعة، ويعذر الفرد- إنْ كان في مكان منعزل عن الجماعة- في عدم إقامة الواجبات الجماعية؛ ولذا سقطتِ الجمعةُ عن المسافر.

٣- تكاليف أمّة ودولة: كإقامة الحدود، وتجْييش الجيوش، ولا شكّ أنّ هذا النوع من التكاليف لا يمكن أنْ يقوم به فردٌ، ولا تقوم به جماعة؛ إنّما يلزم الحكومة والدولة، ولا يجوز للأفراد أن يقرّروا من تلقاء أنفسهم القيامَ بواجبات الدولة لما يترتّب على ذلك من فساد وافتئات على الدولة وسلب سلطانها.

ولذلك قلنا تطبيق ما أمكنه، ولنا في رسول الله- ﷺ- أسوة حسنة، فإنّ رسالة النبي الكريم لم تكنْ خاصّة بالعرب؛ إنّما هي للعالمين، ومع هذا لم يتوجّه النبي الكريم بدعوته للعالمين إلا عندما تمكّن من ذلك؛ حيث هاجر وصالحَ أهل مكة في العام السادس من الهجرة، بدأ يوجّه رسله هنا وهنالك لملوك الدنيا كلّها قدر استطاعته، وفي هذا دليل على أنّ المؤمن يجب عليه أن يؤمن بشمول الإسلام، وأن يدخلَ فيه كما أمر الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[1] .

أمّا من حيث التّطبيق فلْيَلتزم كلّ مسلم بما كلّفه الله تعالى به في حدود قدراته ومسئولياته، دون أن يقحمَ نفسه فيما هو ليس في حدود طاقته.

فما يلزم الدولة لا يلزم الحزب أو الجماعة، وما يلزم الجماعة لا يلزم الفرد.

---

(١)) سورة البقرة، الآية:٢٠٨.

(٥) أركانُ الإسلام:

للإسلام أركانٌ خمس، وهي:

١- الشهادتان.

٢- إقام الصلاة.

٣- إيتاء الزكاة.

٤- صوم رمضان.

٥- حج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلًا.

وهذه الأركان الخمسُ كالهيكل الخرساني لكلّ بناء، أو الأعمدة الرئيسية في كلّ بنيان.

فالناس على عهد نوح مطالبون بهذه الخمس.

وفي الشّهادتين يقولون: لا إله إلّا الله، نوح رسول الله.

وعلى عهد إبراهيم يقولون: لا إله إلّا الله، إبراهيم رسول الله.

وعلى عهد موسى يقولون: لا إله إلّا الله، موسى رسول الله.

وعلى عهد عيسى يقولون: لا إله إلّا الله، عيسى رسول الله.

كما نقول على عهد محمّد، وإلى أنْ تقوم الساعة؛ حيث لا نبي بعده: لا إله إلّا الله، محمد رسول الله.

والصّلاة ثابتة في كلّ الشرائع، وكذا الصيام والصوم والحج مع اختلاف ربما في الطيفية أو في العدد والمقدار.

يؤكّد هذا ما أخبرنا به القرآنُ الكريم.

فعَن الصّلاة والزكاة، قال الله تعالى حكايةً عن عيسى- عليه السلام- في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [سورة مريم، الآيتان: ٣٠، ٣١].

وفي الصّوم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٨٣].

وفي الحجّ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ٩٧].

بل إنّ إبراهيم الخليل هو الذي أعاد رفعَ بناء الكعبة، بعد أن زالت بسبب الطوفان، أوْ عوامل التعرية، وهو الذي دعا اللهَ تعالى بأنْ يُريه ويعلّمه المناسك التي قام بتأديتها كلّ المؤمنين مِن بعده إلى أن تقوم الساعة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة، الآيتان: ١٢٧، ١٢٨].

وفيما يلي نشرحُ هذه الأركان، بإيجاز.

الرّكنُ الأوّل: الشهادتان:

نعني بالشّهادتين: شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمدًا رسول الله.

وهُما المدخل إلى الإسلام، وهُما ركنُه الأعظم، ولا يحكم بإسلام شخص إلّا بالنطق بهما والعمل بمقتضاهما، وبهما يصير الإنسان مسلماً.

أوّلًا: معنى شهادة أن لا إله إلّا الله:

تعني شهادة أن لا إله إلّا الله ما يلي:

١) أن يعتقد المسلم أنّ:

الله- عزّ وجلّ- وحده هو الخالق، ولا خالق غيره.

خلق السّموات وما فيها، وما فوقها، وما تحتها؛ خلق الأرض وما فيها، وما فوقها، وما تحتها؛ خلق الجبال والبحار والأنهار، خلق الصّحاري والأشجار، وخلق الإنس والجن والملائكة، وخلق الوحوش والطيور والحشرات، وما من شيء نراه بأعيننا أو نحسّ به إلّا وهو خالقه، وخلق ما لا نراه، وما لا علمَ لنا به، وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، ولم يدّع أحدٌ على مدار الزمن أنّه خلق نفسه، أو خلق غيره، قال تعالى على سبيل التّحدي: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[2]؛ وعندما كان جبير بن مُطعم أسيرًا بالمدينة، سمع رسولَ الله يقرأ سورة الطور في صلاة المغرب حتّى بلغ رسول الله- ﷺ- في التلاوة: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، كما ورد في الصحيح، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِم، عَنْ أَبِيهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ

(١) (سورة النحل، الآية: ٨).

(٢) (سورة الطور، الآيتان: ٣٥، ٣٦).

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ[1].

٢) أن يعتقد المسلم أنّ:

الله تعالى مالكُ كلّ شيء، ولا مالك سواه، فخلق وملك، ولم يتنازل عن ملكه لأحدٍ؛ إنّما يعطي مِن ملكه مَن يشاء، ويمنع مَن يشاء.

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]. ونفى سبحانه أن يكون له شريكٌ في ملكه، ولو بمقدار الذرّة، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[4].

والقطمير هو: القشرة الرقيقة البيضاء التي تكون بين التمرة ونواتها.

---

(١) صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري - (٦ / ١٧٥).

(٢) (سورة آل عمران، الآيتان: ٢٦، ٢٧).

(٣) (سورة سبأ، الآية: ٢٢).

(٤) (سورة فاطر، الآية: ١٣).

٣) أن يعتقد المسلم بأنّ:

الله تعالى وحده هو الذي يملك الضرّ والنّفع والعطاءَ والمنع؛ لأنّه وحده مالك الملك.

ولقد نعى اللهُ على المشركين عبادتهم مَن لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٢].

٤) أن يعتقد المسلم بأنّ:

الله متفرّدٌ- سبحانه وتعالى- بالتدبير، وأنه المتصرّف وحده في الأمور، وأن كلّ شيء يسير بأمره ووفق تدبيره سبحانه.

فالشموس والأقمار والجبال والبحار والشجر والنهر، بل السموات والأرض وما فيهما؛ كلّ شيء يسير بأمره، ووفق تدبيره سبحانه، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٤]، ولا

(١) (سورة المائدة، الآية: ٧٦).

(٢) (سورة الزمر، الآية: ٣٨).

(٣) (سورة يس، الآية: ٣٨: ٤٠).

(٤) (سورة فاطر، الآية: ٤١).

بدّ من أن نثبت لله تعالى الانفراد بالتدبير، وإلّا لو كان هناك مَن يدبر معه لفسدَ الحال، قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1].

٥) أن يعتقد المسلم أنّ:

الله تعالى هو المستحقُّ للعبادة دون سواه؛ لأنّه هو مَن خلق وملك ورزق ودبّر.

ولقد فسّر بعضُ السلف قولَ الله تعالى «لِيَعْبُدُونِ» في الآية الكريمة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[2] قالوا: ليوحدون.

٦) أن يعتقد المسلم أنّ:

الله تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلا

لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[6].

---

(١) (سورة الأنبياء، الآية: ٢٢).

(٢) سورة الذاريات، الآية :٥٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية :١٨٠.

(٤) سورة الإسراء، الآية :١١٠.

(٥) سورة طه، الآية: ٨.

(٦) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

والحسنى في اللغة: هو جمع الأحسن؛ وليس جمع الحسن، فأسماء الله أحسن الأسماء، وهي توقيفيّة؛ فلا تعرف إلّا من خلال الكتاب والسنة الصحيحة.

ونثبتُ لله تعالى ما أثبتَ لنفسه في كتابه، أو على لسان نبيّه- ﷺ- من غير تأويلٍ أو تعطيل، أو تشبيه أو تمثيل، ونكِلُ العلمَ بالكيفية لله ربّ العالمين.

ثانيًا: من أهمّ الثّمرات التي يجنيها المسلمُ نتيجة توحيده:

١. الطّمأنينة القلبية والرّاحة النفسية والعزة الإيمانية، إذْ أمرُه بيد أرحم الراحمين، وحاجته لدى الغنى المغني، فلا سلطانَ عليه لغير الله، ولا يملك له نفعًا أو ضرًّا إلّا الله، إذ من مقتضيات الإيمان بربوبية الله تعالى، الإيمان بأنّ:

الله وحدَه الضّار النّافع، والمعطي المانع، والمعزّ المذل، فلا يملك أحدٌ سواه شيئًا ولو كان نبيًّا مرسَلًا، أو ملَكًا مقرّبًا، أو حتّى شيطانًا ماردًا.

وهذا خيرُ الخلق- ﷺ- يُعلن في صراحةٍ ووضوحٍ أنّه لا يملك لأحد شيئًا حتى لأقرب الناس إليه، فلقد قال رسولُ الله- ﷺ- لقومه وعشيرته حين أنزل عليه ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْش اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لاَ أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلب لاَ أُغْنِى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلب لاَ أُغْنِى عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِى عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[١].

---

(١) صحيح مسلم (١ / ١٣٣).

٢. حُسْن التوكّل على الله تعالى وحده، والاعتماد عليه سبحانه دون سواه، والاستعانة به دون غيره، ولقد أكّد النبيّ- ﷺ- هذا المعنى، ففي الحديث الصحيح عن ابن عباس قال: كنت خلفَ رسول الله- ﷺ- يومًا، فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١] .

٣. الفوزُ بالجنّة لمن آمن وعملَ صالحًا، فعنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله- ﷺ- يَقُولُ: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لا يَقُولهُا عَبْدٌ حَقًّا مِنْ قَلْبِهِ فَيَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ، إِلّا حُرِّمَ عَلَى النَّارِ لا إِلَهَ إِلّا الله»[٢].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله- ﷺ-: تُوضَعُ الْمَوَازِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْتَى بالرَّجُلِ، فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ، فَيُوضَعُ مَا أُحْصِيَ عَلَيْهِ، فَتَمَايَلَ بِهِ الْمِيزَانُ، قَالَ: فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَى النَّارِ، فَإِذَا أُدْبِرَ بِهِ إِذَا صَائِحٌ يَصِيحُ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ، يَقُولُ: لاَ تَعْجَلُوا، لاَ تَعْجَلُوا، فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ، فَيُؤْتَى ببِطَاقَةٍ فِيهَا: لاَ إِلَهَ إِلّا اللَّهُ ، فَتُوضَعُ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ، حَتَّى يَمِيلَ بِهِ الْمِيزَانُ[٣].

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٤ / ٦٦٧) وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الأحاديث المختارة (٢٥٠)، وإسناده: صحيح.

(٣) مسند أحمد بن حنبل (٢ / ٢٢١) قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جبَلٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهُ- ﷺ-: «مَنْ كَانَ آخْرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلهَ إِلّا اللهُ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1] .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ- رَضيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رسول الله، ﷺ،: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثمّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلّا دَخَلَ الْجَنَّةَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنى، وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ :«وَإِنْ زَنى، وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنى، وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنى، وَإِنْ سَرَقَ». قُلْتُ: وَإِنْ زَنى، وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ :«وَإِنْ زَنَى، وَإِنْ سَرَقَ، عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ». وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ: وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ[2] .

وهذا الحديث- وأمثاله- يشير إلى المسلمين الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخرَ سيئًا، فإنْ تابوا تاب اللهُ عليهم، وإن لقوا الله- جلّ وعلا- بكبائر بغير توبة فإنّه يغفر، سبحانه وتعالى، ذلك لمن يشاء؛ ويعذّب من يشاء لفترةٍ يعلمها الله وحده، ثمّ يدخلهم الجنة.

وكلّ هذا فيمَن لا يظلم غيرَه من العباد، بل كانت ذنوبه ومعاصيه في حقّ الله وحده، ولم يضرّ أحدًا من خلقه.

ثالثًا: معنى شهادة أنّ محمدًا رسول الله:

هذه الشّهادة هي الشّطر الثاني من الرّكن الأوّل من أركان الإسلام الخمسة، وتعني أنْ:

نعبد الله وحدَه على منهج سيدنا محمد ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦) قال محققه: صحيح.

(٢) متفق عليه، البخاري (٥٤٨٩) باب الثياب البيض، واللفظ له، مسلم (٩٤).

إذْ لا يمكن للإنسان أن يعرفَ كيف يرضي ربَّه، ويتجنّب سخطه، أو ما الذي يرضيه، وما الذي يسخطه؛ إلّا من خلال الوحي، والوحي لا بدّ له من نبيّ من البشر، ليكون قدوة للخلق.

وقد شاء الله تعالى أنْ يكون محمد- ﷺ- خاتم النبيين وسيد المرسلين، ولا يكتمل هذا الإيمان إلّا بما يلي:

١) طاعته ولزوم سنته والمحافظة عليها:

وقد جعل الله تعالى طاعةَ النبي – ﷺ- طاعة لله، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٢].

٢) محبّته- ﷺ- محبّة تقتضي تقديمه على النفس والمال والولد:

وتتحقّق بمتابعته- ﷺ- والاقتداء به، والسّير على نهجه، والتمسّك بسنته، واقتفاء أثره، واتّباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه والتأدّب بآدابه، والتخلق بأخلاقه.

٣) تعزيره (بمعنى: نصرته)، ﷺ، وتعظيمه وتوقيره في حياته وبعد مماته:

لقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٤]، وتوقيره، لأنه سيد ولدِ آدم، وأوّلُ شافع، وأوّل مشفّع،

(١) (سورة النساء، الآية: ٨٠).
(٢) (سورة النساء، الآية :٦٤).
(٣) سورة الفتح، الآية: ٩ .
(٤)) سورة الأعراف، الآية :١٥٧.

وأوّل مَن تنشقّ عنه الأرض، ولواء الحمد بيده- ﷺ- يوم القيامة، وأوّل مَن يجيز على الصراط، وأوّل مَن يقرع بابَ الجنة، وأوّل مَن يدخلها؛ كما في الأحاديث: عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدمَ يوم القيامة، وأوّل مَن ينشق عنه القبر، وأوّل شافع، وأوّل مشفّع»[١]، فهو الشفيع يوم المحشر بين يدي الربّ- جلّ جلاله- لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلّا له ﷺ.

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدمَ يوم القيامة، وبيدي لواءُ الحمد ولا فخر، وما مِن نبي يومئذ آدم فمن سواه إلّا تحت لوائي، وأنا أوّل مَن تنشقّ عنه الأرض ولا فخر»[٢].

وفي الحديث: «... ويضربُ الصّراط بين ظهري جهنّم، فأكونُ أوّل مَن يجوز مِن الرسل بأمته»[٣].

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعًا يومَ القيامة، وأنا أوّل مَن يقرع باب الجنة»[٤].

ومِن تعظيمه وتوقيره ﷺ عدمُ المناداة عليه باسمه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧/ ٥٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢). والترمذي في سننه (٥/ ٥٨٧) ح ٣٦١٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجه في سننه، (٢/ ١٤٤٠) ح ٤٣٠٨.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، (٢/ ٢٩٢، ٢٩٣) ح ٨٠٦، وأخرجه مسلم في صحيحه، (١/ ١١٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، (١/ ١٣٠).

لقوله تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾[1]، فلا يُنادَى عليه بقولهم: يا محمد، ولكنْ يقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله؛ خاصّة وأنّ الله- سبحانه- أكرمه في مخاطبته إيّاه بها لم يكرم به أحدًا من الأنبياء، فلم ينادِ عليه باسمه في القرآن قطّ، بل يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، مع أنّه سبحانه قال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ﴾[2]، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾[3]، ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآ﴾[4]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[5]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[6]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾[7]؛ ولم يذكرْه باسمه إلّا في مقام الإخبار عنه والشهادة له: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[8]، ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾[9]، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[10]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾[11].

(١) سورة النور، الآية :٦٣.
(٢) سورة البقرة، الآية :٣٥.
(٣) سورة هود، الآية :٤٨.
(٤) سورة هود، الآية :٧٦.
(٥) سورة الأعراف، الآية :١٤٤.
(٦) سورة ص، الآية :٢٦.
(٧) سورة المائدة، الآية :١١٠.
(٨) سورة الأحزاب، الآية :٤٠.
(٩)) سورة الفتح، الآية :٢٩.
(١٠) سورة آل عمران، الآية :١٤٤.
(١١) سورة محمد، الآية :١.

ومن مظاهر تعظيمه وتوقيره في حياته، وبعد لحوقه بالرّفيق الأعلى، تعظيم أمْره ونهيه، وعدم رفع الصّوت في حضرته، أو أثناء تعليم سنّته، وذكر حديثه الشّريف، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1].

الرّكنُ الثّاني: إقامُ الصّلاة:

١) مكانةُ الصّلاة في الدين:

الصّلاةُ هي الرّكن الثّاني من أركان الإسلام بعد رُكْن الشهادتين

فعَن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْس: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[2].

الصّلاةُ هي أوّل ما يحاسَب عليه العبدُ يوم القيامة

---

(١) سورة الحجرات، الآيات: ١: ٥.

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري (١ / ٩)، صحيح مسلم (١ / ٣٤).

فعَن أبي هريرة– رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله– ﷺ– يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ به الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ يَوْمَ الْقِيَامَة، الصَّلَاةُ الْمَكْتُوبَةُ، فَإِنْ أَتَمَّهَا، وَإِلَّا قِيلَ: انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَتِ الْفَرِيضَةُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثمّ يُفْعَلُ بِسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْمَفْرُوضَةِ مِثْلُ ذَلِكَ»[١].

الصّلاة هي أحبُّ الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى

فعَن عبد الله بن مسعود– رضي الله– عنه قال: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا»، قَالَ: ثمّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الوَالِدَيْنِ» قَالَ: ثمّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي»[٢].

الصّلاة تمحو الخطايا وتُذهِب السيئات

فعَن أبي هريرة أنّه سمع رسول الله– ﷺ– يقول: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كلّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِه» قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا»[٣].

ولذا يطالب بها الصبيّ الذي لم يبلغ الحُلُم بها، مع أنّه غير مكلّف شرعًا بأيّ تكليف[٤]، ليتعود على الصّلاة وهو ابنُ سبع سنين، ويؤمَر بالصّلاة

(١) سنن ابن ماجه (١ / ٤٥٨)، قال الألباني: صحيح.

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري (١ / ١١٢)، صحيح مسلم (١ / ٩٠).

(٣) صحيح البخاري (١ / ١١٢).

(٤) سنن أبي داود (١ / ١٣٣): [قال الألباني]: حسن صحيح.

حين يبلغ عشْرَ سنين، حتى إذا بلغ سنّ التكليف يكون قد اعتادها؛ فيحافظ عليها بلا مشقّة، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عبد الله بن عمرو- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- ﷺ-: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»[1].

٢) متى فُرضت الصّلاة؟:

فُرضت الصّلاة ليلةَ الإسراء والمعراج خمسينَ فريضة في اليوم والليلة، ثمّ خُفّفت إلى خمس صلوات تَعْدل في ثوابها الخمسين، فعَن أنس- رضي الله عنه- قال: «فُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ، ثمّ نُقِصَتْ حَتَّى جُعِلَتْ خَمْسًا، ثمّ نُودِيَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، وَإِنَّ لَكَ بِهَذِهِ الْخَمْسِ خَمْسِينَ»[2]. وروى البخاري عن أنس حديثًا طويلًا عن الإسراء، وجاء فيه هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، لاَ يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ»[3]، والمعنى خمس في الأداء وخمسون في الأجر.

وروى أحمد عن ابن عباس- رضي الله عنه- أنّه قال: «فُرِضَ عَلَى نَبِيِّكُمْ -ﷺ- خَمْسُونَ صَلاةً، فَسَأَلَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَجَعَلَهَا خَمْسًا»[4].

---

(١) مسند أحمد (٢ / ١٨٧)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) سنن الترمذي (١ / ٤١٧): قال الألباني: صحيح.

(٣) صحيح البخاري (١ / ٧٩).

(٤) مسند أحمد (٥ / ٦٩).

فالصّلوات المفروضات في اليوم واللّيلة خمس صلوات يؤكّد هذا ما رُوي عن طلحة بن عبيد الله- رضي الله عنه- أنّه قال: «جاء رجلٌ إلى رسول الله-ﷺ- من أهل نجدٍ ثائرَ الرأس يُسمَع دويُّ صوتِه ولا يُفقَه ما يقول حتّى دنا، فإذا هو يَسأل عن الإسلام، فقال رسول الله- ﷺ-: خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ»[1].

وهذه الصّلوات الخمس هي:

الصّبح (الفجر): ركعتان، والظّهر: أربع ركعات، والعصر: أربع ركعات، وصلاة المغرب: ثلاث ركعات، وصلاة العشاء: أربع ركعات.

٣) حُكمُ تارك الصلاة:

تاركُ الصّلاة إمّا أن يكون تَرَكها كسلًا وتهاونًا، وإمّا أن يكون تركها إنْكَارًا لوجوبها وجحودًا لها، فأَما إنْ تركها كسلًا وتهاونًا فهو فاسقٌ عاصٍ، وأَمّا إنْ تركها جحودًا وإنكارًا فهو كافر مرتدّ عن دين الله سبحانه، فعَن عُبادة بن الصامت- رضي الله عنه- قال: «خَمْسُ صَلَوَات افْتَرَضَهُنَّ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ»[2].

---

(١) صحيح البخاري (١ / ١٨).

(٢) مسند أحمد (٣٧ / ٣٧٧): إسناده صحيح.

والأحاديث التي ورد فيها لفظ الكفر لتارك الصلاة كثيرة، منها:

«العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[١]، و«إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ»[٢].

والحديثان محْمولان على التّغليظ والوعيد الشديد على مَن ترك الصلاة

مِن ذلك: قولُه- ﷺ-: «سِبَابُ الْمُسْلِم فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»[٣]، وقوله ﷺ «وَأُرِيتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَاليَوْم قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ» قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ» قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: « يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ...»[٤].

والكفر يُطلق على الخروج من الملّة، وهو في مَن جحد الصلاة وأنكرَ فرضيّتها، وقد يطلق على أفعالٍ محرّمة لا تُخْرِجُ من الملّة، ويسمّى الكفر هنا كفرًا عمليًّا.

وللصّلاة شروطٌ وأركان وسُنن ومُبطلات لا غنى للمسلم عن معرفتها، يمكن مراجعة تفصيلها وأدلتها في كتب الفقه[٥] .

---

(١) سنن الترمذي (٥ / ١٤) . قال الألباني: صحيح.

(٢) صحيح مسلم (١ / ٨٨).

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري (١ / ١٩)، صحيح مسلم (١ / ٨١).

(٤) صحيح البخاري (٢ / ٣٧).

(٥) راجع: كتابنا: فقه العبادات.

الرّكنُ الثّالث: الزّكـاة:

١) تعريفُها:

الزّكاة لغة: هي النّماءُ والزّيادة، والمالُ يزيد بالزّكاة بركة، ويطهّر المزكي بالمغفرة.

واصطلاحًا: هي حقّ واجبٌ في مال خاصّ لطائفة مخصوصة في وقتٍ مخصوص.

٢) مكانةُ الزّكاة في الدّين:

الزّكاة هي ثالثُ أركان الإسلام الخمسة، وهي قرينةُ الصّلاة في مواضع كثيرة من كتاب الله، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾[٢]، وقال ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[٣].

شرعَ الله الزكاة تطهيرًا لنفوس البشرية من الشّح والبخل والطمع ومواساة للفقراء والمساكين والمحتاجين، وتطهيرًا للمال، وتنميته، وإحلال البركة فيه، ووقايته من الآفاتِ والفساد، وإقامة المصالح العامّة التي تتوقّف

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة البينة، الآية: ٥.

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري (١ / ٩)، صحيح مسلم (١ / ٣٤).

عليها حياة الأمة وسعادتها، وقد ذكر الله تعالى الحكمة من أخذ الزكاة في كتابه حيث قال: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1].

وهي فرضٌ واجب على كلّ مسلم مَلَك نصابًا من مالٍ بشروطه، ومَن جحد وجوبها وهو عالم عامد فقد كفَر، ومَن منعها بخلًا وتهاونًا يعتبر بذلك فاسقًا ومرتكبًا لكبيرة عظيمة.

وقد توعّد الله- تبارك وتعالى- مانعَ الزّكاة بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾[2]، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من صاحب كنز لا يؤدّي زكاته إلّا أحمي عليه في نار جهنم، فيجعل صفائح، فيكوى بها جنباه وجبنيْه حتّى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثمّ يرى سبيله إمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار...»[3].

سمّاها الله تعالى حقًّا لأنّها ليست مِنّة من الأغنياء على الفقراء؛ بل هي حقّ الفقير في مال الغني

ومِن الآيات الدّالة على أنها حقّ:

---

(١) سورة التوبة: من الآية١٠٣.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

(٣) متّفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[3].

وهذا تكريمٌ لذوي الحاجات والفقراء والمساكين.

أضفْ إلى هذا أنّ الدولة مكلّفة بجمعها وإنفاقها على مستحقّيها دون إلجاء المحتاج للتسول أو الوقوف على أبواب الأغنياء.

الزّكاة حقّ للفقراء في أموال الأغنياء، والأصل أن تتولى الدّولة أخذه طوعًا أو كرهًا ممن وجبت عليهم الزّكاة؛ لتتولى الإنفاق على المحتاجين دونَ إذلال لهم من صاحب المال، بل يأخذونها بالطريق الرسمي من مؤسّسات الدولة.

ومصارفُ الزكاة ثمانية، حدّدها الله تعالى في كتابه الكريم في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[4].

وللزّكاة فقهٌ يجب على المسلم تعلمه في كتب الفقه[5].

---

(١) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤، ٢٥ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٦.

(٤)) سورة التوبة، الآية: ٦٠ .

(٥)) راجع: كتابنا: فقه العبادات.

الرّكنُ الرّابع: صيام شهر رمضان:

١) تعريفه:

لغة: الإمساك.

وشرعًا: هو إمساك عن المفْطرات من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس.

٢) مكانةُ الصّوم في الدين:

فُرِضَ صيامُ رمضان على الأمّة الإسلامية في السنة الثانية من الهجرة، وهو أحدُ أركان الإسلام ومبانيه العظام.

لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[١].

ولما ورد عَن ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ- ﷺ- بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ[٢].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري (١ / ٩)، صحيح مسلم (١ / ٣٤).

وهذه الفريضة قد فرضها الله- عزّ وجلّ- على سائر الأمم من قبلنا، فما من أمّة بعث إليها نبي وأنزل إليها كتاب إلّا وقد فرض عليها الصوم، ولكن يختلف في الهيئة والكيفية، والعدد والمدّة والكمّية عنه في هذه الأمّة؛ لأنّ الله يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1].

شهرُ رمضان موسمٌ عظيم لطاعة الله عزّ وجلّ، يمنّ به على مَن يشاء من عباده، لتزداد حسناتهم، وترفع درجاتهم، وتحطّ سيئاتهم، وتقوى صلتهم بخالقهم جلّ وعلا، وتمتلئ قلوبهم بخشيته وتقواه.

٣) فضلُ الصّوم:

قولُه تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

وقولُه ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[3].

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري (١ / ١٦)، صحيح مسلم (٢ / ١٧٦).

وقولُه ﷺ: «كلّ عَمَل ابْن آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَة ضِعْف، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِى وَأَنَا أَجْزِى بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِى لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»[1].

ودعاءُ الصّائم مستجاب؛ لقوله ﷺ: «للصائم عند فطره دعوة لا ترد»[2].

خصّص الله تعالى للصائمين بابًا من أبواب الجنة، لا يدخل منه إلّا الصائمون، إكرامًا لهم، وتمييزًا لهم عن غيرهم، فعنْ سهل بن سعد- رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّ في الجنة بابًا يُقال له «الرّيان»، فإذا كان يوم القيامة قيل: أين الصّائمون، فإذا دخلوا أغلق عليهم فلم يدخل منه أحد»[3].

الصّيام يشفع لصاحبه يومَ القيامة، لقوله ﷺ: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام أيّ ربّ منعتُه الطعام والشهوة؛ فشفّعني فيه، ويقول القرآن منعتُه النوم بالليل فشفّعني فيه، قال: فيشفعان»[4].

وعن أبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: اللَّهُ كلّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ

---

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٥٨).

(٢) سنن ابن ماجه، عبد الباقي + الألباني - (١ / ٥٥٧)، قال الشيخ الألباني: ضعيف.

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري (٣/ ٣٢) صحيح مسلم (٣/ ١٥٨).

(٤) مسند أحمد بن حنبل - (٢/ ١٧٤) قال الأرناؤوط: إسناده ضعيف.

أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ، وَلاَ يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّد بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ[1].

٤) الحكمةُ من فرض الصوم:

بيّن الله- عزّ وجلّ- العلّة التشريعية من فرضيّة هذا الصيام؛ فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2] .

أي: هذه الفريضة الغرض من فرضها أن تتقوا الله.

وإذا كانت العلّةُ من جميع الشرائع أن يتقي العبدُ ربّه، لكن على وجه الخصوص يعتبر الصيام أكثر العبادات تحقيقًا لهذه الغاية؛ لأنّه عبادة قلبية لا تظهر لأحدٍ على وجه الأرض، ولا يمكن أن يكتشف ما في قلبك أحدٌ أو يعرف أنت صائمٌ أم مُفْطر إلذا الله، إذ بإمكانك أن تتظاهر للناس، فتتسحر مع أهلك السّحور، وتخرج مع الناس صائمًا في رمضان، ولكن تستطيع أن تختفي عن أعين الناس وتتناول شيئًا من المفطرات ولكنّ الله يراك، ولذا فالذي لا يتناول شيئًا من المفطرات لا مع الناس ولا مع نفسه يبرهن على أنّه يتقي الله،

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (٣ / ٣٤)، صحيح مسلم (٣ / ١٥٧).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

ويدلّل على أنّه يشعر برقابة الله؛ ولذا جاء في الحديث القدسي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَن النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ: كلّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلاَّ الصَّوْمَ فإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ[1].

وفي رواية مسلم:

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «كلّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِى وَأَنَا أَجْزِى بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِى لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ». [2].

فالصّوم خالصٌ لله ليس لك؛ لأنّك تعبد الله فيه كأنك تراه، وتستشعر في كلّ لحظة أن الله يراك، وهذه أعْلى مراتب الدين (مرتبة الإحسان)، وهي: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[3] .

٥) الصّومُ مدرسة الأخلاق:

فالصّائمُ لا يتفوّه بكلمةٍ نابية، ولا يقبل أن يدخل في شجارٍ مع أحد، ويتعوّد على ضبط نفسه، حتى إذا ابتدأ غيرُه بالسّب أو الشتم لم يردّ عليه إلّا بقوله: أنا صائم.

---

(١) صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري - (٧/ ٢١١).

(٢) صحيح مسلم ـ مشكولٌ وموافق للمطبوع - (٣/ ١٥٨).

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري حسب ترقيم فتح الباري (١/ ٢٠)، صحيح مسلم (١/ ٢٨).

فعنْ أبي هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ- عَزَّ وَجَلَّ- كلّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»[1] .

وقول الرّسول- ﷺ-: (الصوم جنة)؛ أي: وقاية للصائم من الضلال ومن المعاصي ومن الزّيغ، بل هو دافع للمسامحة وعدم المؤاخذة بالمثل، وهذا مما ينمّي الأخلاق لدى المسلم.

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ- ﷺ- شَبَابًا لاَ نَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ- ﷺ-: يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[2]. معنى الباءة: كناية عن النكاح، ومعنى وجاء: حصنٌ ووقاية؛ لأنّ في الصوم إضافة إلى مراقبة الله واستحضار عظمته كسْرًا للشّهوة.

وللصّوم أحكامٌ عديدة يمكن مراجعتها في كتب الفقه[3] .

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري - (٣ / ٣١) صحيح مسلم، واللفظ له (٣/ ١٥٧).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري (٧ / ٣)، صحيح مسلم (٤ / ١٢٨).

(٣) راجع: كتابنا: فقه العبادات.

الرّكنُ الخامس: حجّ بيت الله الحرام:

(١) تعريفُه:

الحجّ في اللغة: القصد.

وفي الشّرع: هو القصدُ إلى مكة لأداء النّسك بصفة مخصوصةٍ في وقت مخصوصٍ وبشروط مخصوصة.

(٢) مكانةُ الحجّ في الدين:

الحجّ هو الرّكن الخامس من أركان الدين، ويجب على المستطيع مرّةً واحدة في العمر، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، وقال رسولُ الله ﷺ: « بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[2].

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ- ﷺ-، فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا». فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ- ﷺ-: «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ- ثمّ قَالَ- ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا

(١) سورة آل عمران، الآية :٩٧ .

(٢) صحيح البخاري (١ / ٩)، صحيح مسلم (١ / ٣٤)..

أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»(١).

وردَ في فضل الحجّ نصوص كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾(٢)، ويشتمل الحج على منافع عظيمة للمسلمين أجمعين، دنيوية وأخروية، ففيه تجتمع عبادات متنوّعة كالطواف بالكعبة والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة ومنى ومزدلفة ورمي الجمار والمبيت بمنى وذبح الهدي وحلق شعر الرأس وكثرة ذكر الله؛ تقربًا إلى الله وتذليلًا له وإنابة إليه؛ لذلك كان الحجّ من أعظم أسباب تكفير الذنوب ودخول الجنة.

فعَن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: «سمعت رسولَ الله- ﷺ- يقول: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»(٣).

وعنه أنّ رسول الله- ﷺ- قال: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»(٤).

وعنه- رضي الله عنه- قال: «سئل رسولُ الله، ﷺ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟

(١) صحيح مسلم (٤ / ١٠٢).
(٢) سورة الحج، الآيتان ٢٧، ٢٨.
(٣) متفق عليه، صحيح البخاري (٢ / ١٦٤) واللفظ له، صحيح مسلم(٤ / ١٠٧).
(٤) متفق عليه، صحيح البخاري (٣ / ٢)، صحيح مسلم (٤ / ١٠٧).

قَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ». قَالَ ثمّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»، قَالَ ثمّ مَاذَا؟ قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»[1].

(٣) مقاصدُ الحجّ:

للحجّ مقاصد عديدة، من بينها:

• التّأكيد على توحيدِ الله تعالى؛ لأنّ شعار الحجّاج (لبّيك اللهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنّعمة لك والملك، لا شريك لك)، وخير ما يقوله الحاجّ يوم عرفة: «لا إله إلّا الله وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير»، بل إنّ أساس البيت أقيم على التّوحيد، فكان الطوافُ به والحجّ إليه تذكيرًا بهذا الأصل العظيم، «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ»[2].

• التقاء المسلمين من كلّ فجّ عميق ببعضهم في بقعة هي أحبّ البقاع إلى الله وتعارفهم وتعاونهم على البرّ والتّقوى، وتساويهم في الأقوال والأذكار والأعمال، وهذا فيه تربيةٌ لهم على الوحدة والاجتماع على العقيدة والعبادة والهدف والوسيلة، وباجتماعهم هذا يحصل بينهم التعارف والتقارب، وسؤال بعضهم عن البعض الآخر، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

(١) صحيح مسلم (١ / ٦٢).

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٦.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

• تجديدُ الإيمان، ففي الحديث الصّحيح: «إنّ الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدّد الإيمان في قلوبكم»[2]. لأنّ الحج تكثر فيه الطاعات، وتتنوع العبادات والقربات- يُتوّجها شرفُ الزمان وشرف المكان؛ طواف وسعي، ووقوف بعرفة، ومبيت بمبنى ومزدلفة، وتكبير، واستغفار، وتلبية، وذبح، لجلال الله سبحانه. ومضاعفة للأجور، ومغفرة من الرّب الغفور، كلّ ذلك يعني تصفيةً للأرواح والأبدان، وتخليصًا لها من ربقة الشيطان، وتثبيتًا لها على الإيمان.

وللحجّ أركان، وواجبات، وسنن... إلخ . ويمكن مراجعة ذلك في كتب الفقه[3].

***

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) أخرجه الحاكم بسند صحيح، انظر حديث رقم: ١٥٩٠ في صحيح الجامع.

(٣) ولمعرفة ما يتعلق بالحج من أحكام وكيفيته يمكن مراجعة: كتابنا فقه العبادات.

الفصلُ الرّابع

الإيمان

(١) تعريفُ الإيمان:

للإيمان تعريفٌ لغوي، وآخر اصطلاحي.

فالإيمانُ في اللغة معناه: التصديق.

وأمّا في الاصطلاح، فمعناه: ما وقَرَ في القلب وصدّقَه العمل[١].

أي: التّصديق الجازم بوجود الله تعالى ووحدانيته، واطمئنان القلب بذلك اطمئنانًا تُرى آثاره في سلوك الإنسان، والتزامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه.

ولما سُئل النبيّ - ﷺ- عن الإيمان؛ أجاب بقوله:

أنْ تُؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره[٢]

---

(١) وقد ورد هذا التعريف على لسان الحسن البصري: إنَّ الإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي، وَلا بِالتَّمَنِّي، إِنَّمَا الإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ.
راجع: مصنف ابن أبي شيبة - (١١ / ٢٢)، شعب الإيمان - (١ / ١٥٩).
(٢) سبق تخريجه.

(٢) مرتبةُ الإيمان أعلى من مرتبة الإسلام:

والإيمانُ إنْ ذكر وحده دلّ على الإسلام، لكنْ إذا ذكر الإسلام والإيمان معًا كان لكلّ منهما معناه كما سبق، فهما إذا اجتمعا في الذّكر اختلفا في المعنى، وإنِ افترقا في الذكر اتّحدا في المعنى.

والإيمانُ هو المرتبةُ الأعلى من مرتبة الإسلام، ويدخل فيها كلّ مَن أقام أركان الإسلام على وجهها الصّحيح، عن حبّ وارتياح، وتابع النبي الكريم في أخلاقه وعبادته وسلوكه ومعاملته وائتمر بالمعروف وأمرَ به، وانْتهى عن المنكر ونهى عنه، فتلك عناصر أساسية يتكون منها الإيمان.

(٣) عناصرُ الإيمان:

للإيمان عناصرُ أربع يتألّف منها، ولا تنفصل بعضها عن بعض، وهي:

الأوّل: العلم أو المعرفة:

أعني معرفة أنّ الله واحدٌ أحد، فردٌ صمد، لا نِدّ (لا مثيل ولا شبيه) له ولا ولد، خالق كلّ شيء، مالك كلّ شيء، مدبّر أمر كلّ شيء، لا خالق غيره ولا معبود سواه، منزه عن الشريك والصاحبة (الزّوجة) والولد، خلق ملائكة، وأنزل كتبًا، وأرسلَ رسلًا، يميتنا ويحيينا للوقوف بين يديه، وتعرض الأعمال عليه، فإلى جنة أبدًا أو إلى نار أبدًا، إلّا أنْ يعفو الله ويصفح، يقدر الأقدار ويفعل ما يشاء ويختار، لا رادّ لفضله ولا معقّب لحكمه، أمره بين الكاف والنون ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الثّاني: اليقين:

وأعني باليقين أن تصبح المعرفة شيئًا ثابتًا في النفس لا يتزعزع، ولا يذهب عند الشدائد والمحن، ولقد كان بنو إسرائيل على معرفة بموسى، وأنّه رسول الله، وأنّه صادق لا يكذب، ومع ذلك لما خرجوا بأمر الله تعالى هربًا من بطش فرعون إلى البحر، تزعزعت ثقتهم في موسى عندما رأوا البحر من أمامهم وفرعون وجنده من خلفهم، فقالوا عندئذ لموسى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[1]، مع أنّ موسى أخبرهم بوعد الله تعالى وبشرهم بالنجاة، لكنهم لما لم يكن عندهم يقينٌ أعربوا عن عدم ثقتهم في وعد الله تعالى، فعند الشدائد يمتحن اليقين، أمّا موسى عليه السلام فيقول لهم: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[2]، فانظر إلى موقف بني إسرائيل الذي يدلّ على أن الأمرَ لا يتعدى كونه معرفة خالية من اليقين، ظهر هذا أيضًا في كلّ تصرفاتهم بعد ذلك، يعبرون البحر فيجدون الناس يعبدون الأصنام فيقولون لموسى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾(١٣٨)[3]، مع أنّ معجزة هلاك فرعون ونجاتهم كفيلة بأن يثقوا بربهم سبحانه. وينتظرون حتّى يذهب موسى لميقات الله فيعبدون عجلًا من دون الله تعالى!! ولليقين درجات ثلاث: علم اليقين، عين اليقين، حق اليقين.

---

(١) سورة الشعراء، الآية:٦١.

(٢) سورة الشعراء، الآية:٦٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية:١٣٨.

علمُ اليقين هو: العلمُ المكتسب من إخبار الصادق، ولا أصدق من الله- عزّ وجلّ- الذي قال عن نفسه: ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[3]، ولذا قال لنبيه في أمور لم يشهدها: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾[4]، بيانًا منه سبحانه أنّ إخبار الرب سبحانه ينبغي أن ينزل منزلة الرؤية العينية، بل ربما يخطئ البصر، لكنّ الله- عزّ وجلّ- لا يمكن أن يتكلم إلّا بالحق.

ثمّ يأتي في المرتبة التّالية إخبار رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسّلام، فقد أجرى الله تعالى على أيديهم خوارقَ العادات شهادةً منه على صدقهم، وعلى رأس هؤلاء حبيب ربّ العالمين وسيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله ﷺ، ولذلك يلزمنا أن نأخذ بكلام الله تعالى وبسنة رسول الله- ﷺ- التي وصلت إلينا بطريق صحيح من غير تردّد إذا ما أردنا أن يكون عندنا الحد الأدنى من اليقين، وهو علم اليقين.

وعينُ اليقين درجةٌ أعلى من علم اليقين، تحصلُ للإنسان إذا ما رأى بوضوحٍ بعينيه هوَ لا بعين غيره وتحقّق مِن سلامة بصره، ولا شكّ أنّ معرفتنا بالله تعالى ينبغي أنْ تكون على الأقلّ في هذه الدرجة، فنحن نرى الله- عزّ وجلّ- في كلّ ما يحيط بنا، في جسدنا المعقّد وهو خالقه، في السموات والأرض وهما أعظم من خلق الناس، في الكون الذي يسير

---

(١) سورة آل عمران، الآية:٩٥.

(٢) سورة النساء، الآية:٨٧.

(٣) سورة النساء، الآية:١٢٢.

(٤) سورة الفجر، الآية:٦.

بنظام دقيق: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[1].

وهي الدّرجة التي قال فيها رسولُ الله- ﷺ-: «أنْ تعبد الله كأنّك تراه» درجة الإحسان.

ومثل إيماننا بالله يكون إيمانُنا بسيدنا محمد رسول الله ﷺ، وبين أيدينا معجزته الخالدة، ونشاهد أوجه إعجازها المتعدّدة، ونحن نتغنّى بالقرآن فنطرب لحلاوته، ويقشعرّ بدننا من خشية منزله، بما لا يدعُ عندنا مجالًا للشكّ في أنّ القرآن كلام الله، وكأنّنا نرى الله تعالى يتكلم به إلى جبريل، وكأننا ننظر إلى جبريل وهو نازلٌ وصاعد يعلّم محمدًا- ﷺ- آي القرآن الكريم.

وسيدنا إبراهيم- عليه السّلام- لما وقف أمام النّمرود يدعوه إلى الله تعالى ناظره النمرود، فقال إبراهيم بعلم اليقين: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فقال النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ وهذه مغالطة كبيرة، ومع أن إبراهيم بفطنته لم يراجع النمرود في زعمه، بل ساقه إلى طريق مسدود: فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾[2]، أي هزم هزيمة شديدة لا يستطيع أن يجادل بعدها.

---

(١) سورة يس، الآية: ٤٠.

(٢) والآية بكاملها من سورة البقرة، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (٢٥٨).

لكنّ إبراهيم- عليه السّلام- تطلّع إلى رؤية الإماتة والإحياء من الله عزّ وجل، فقال كما حكى القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ سأله ربه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ والله تعالى أعلم بحال إبراهيم، فقال إبراهيم: ﴿بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ كأنّه قال: أريد أن أنتقل من درجة علم اليقين (إخبار الله) إلى درجة عين اليقين، فأشاهد بعيني قدرة الله، فأمره الله تعالى بأمره: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

وأعلى درجاتِ اليقين هي: درجة حقّ اليقين، وهي أعلى المنازل على الإطلاق، تحصل للإنسان بعد أن يمنّ اللهُ عليه بالدّرجتين السابقتين؛ حيث يستشعر الإنسان أنّه يعيش بجسده وروحه في داخل ما أخبر الله عنه ورسوله، وقد أشارت آياتُ القرآن الكريم إلى اليقين بدرجاته الثلاث: فقال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾[2]، وفي سورة الواقعة يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[3]. فلما أخبروا بها كان علم يقين ولما رأوها على الحقيقة كان عين يقين، ولما دخلوها أصبح الأمر حق يقين.

---

(١) والآية بكاملها من سورة البقرة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦٠).

(٢) سورة التكاثر، الآية:٥: ٧.

(٣) سورة الواقعة، الآية:٩٢: ٩٥.

وسيدنا محمد- ﷺ- أعطاه الله تعالى اليقين في أعلى درجاته فبلغ مرتبةَ حقّ اليقين، ففي رحلةِ الإسراء والمعراج يستدعيه ربّه إلى حضرته القدسية، فيرى ويعاين من آيات الله ما لا يتخيله إنسان في رحلة الإسراء والمعراج، قال سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1]، وقال أيضا: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[2]، ولقد دخل الجنة ورأى قصورها وهو في دار الدنياﷺ، ورأى قصر عمر- رضي الله عنه- وأرضاه، كما ورد في الصحيح عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِقَصْرٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَدْخُلَهُ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِلَّا مَا أَعْلَمُ مِنْ غَيْرَتِكَ، قَالَ: وَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِ[3].

ولذا نقول لقد بلغ يقين رسول الله- ﷺ- أعلى درجاته، وكان يفيض على من حوله مِن أصحابه، فإذا تكلّم معهم عن الجنة والنار كأنّهم يرونها بأعينهم من شدّة يقينه ﷺ، كما ورد في صحيح مسلم عن حنظلة رضي الله عنه: «نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ- ﷺ- يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ»[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٢) سورة النجم، الآية: ١٨.

(٣) صحيح البخاري (٩ / ٥٠).

(٤) صحيح مسلم (٨ / ٩٤).

الثّالث: التخلّق بأخلاق المؤمنين:

كما قال تعالى معرّفًا المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[(١)].

فثمرةُ الإيمان هي الأخلاق، وهو عنصرٌ أساسي من مكوّنات الإيمان، ولقد نفى النبي- ﷺ- كمال الإيمان عمّن لم يتخلّق بالأخلاق الحسنة، فقال ﷺ: «مَن غشّ فليس منّا»[(٢)].

وقال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[(٣)].

وقال ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خِشَاشِ الأَرْضِ»[(٤)].

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقه»[(٥)].

---

(١) سورة المؤمنون، الآية :١: ١١.

(٢) رواه الترمذي (٣/ ٦٠٦) بسند حسن صحيح، ورواه مسلم في صحيحه(١/ ٦٩) بلفظ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا».

(٣) انظر: صحيح وضعيف الجامع الصغير - (٢٧/ ٢٠٧) وقال الألباني (صحيح).

(٤) متفق عليه واللفظ للبخاري (٤/ ١٥٧).

(٥) متفق عليه واللفظ لمسلم (١/ ١٦١).

وقال ﷺ: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[١].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة مشهورة، كلّها تؤكّد على أن الأخلاق من أهمّ مكونات الإيمان.

الرّابع: الغيرةُ الإيمانية:

التي تعني: الأمر بالمعروف بعد الائتمار به، والنّهي عن المنكر بعد الانتهاء عنه، والتحلي باللين عند الأمر والنّهي، ومما يؤكّد أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من العناصر المكوّنة للإيمان قولُ النبي –ﷺ–: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[٢].

فتأمّل قوله– ﷺ– أضعف الإيمان لمن غيّر بقلبه، إذًا مَن ترك النهي عن المنكر ولم يغيره بأيّ درجة من درجاته؛ فقلبه خال من الإيمان.

وليس معنى هذا أنّنا نكفّر مَن يترك الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر أو من لم يحقق هذه العناصر مجتمعة (العلم، واليقين، والتخلق بأخلاق المؤمنين، والغيرة الإيمانية)، بل ننفي عنه كمال الإيمان، ويظل في دائرة الإسلام الواسعة، وهو محاسب أمام الله تعالى، فما فعل مِن خير كان له أجره، وما ترك من واجب أو فعله من منكر كان عليه وزره.

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (صحيح مسلم: (١ / ٥٤).

(٢) صحيح مسلم (١ / ٥٠).

قال تعالى في قوم زعموا الإيمان ولم يكونوا صادقين في زعمهم: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[١].

• الإيمانُ يزيد وينقص:

أجمعَ العلماءُ على أنّ الإيمان يزد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وذكر الإمام البخاري- رحمه الله تعالى- في صحيحه تحت عنوان: باب الإيمان[٢].

ثمّ قال: وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ

وفي القرآن الكريم آياتٌ عديدة تدلّ على زيادة الإيمان، من بينها:

قَولُ اللهَّ تَعَالَى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾.

﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾.

---

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٢) صحيح البخاري (١ / ٨).

والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ومن الطّاعات التي تزيد الإيمان: ذكر الله، تلاوة القرآن الكريم، مجالس العلم، التهليل والتسبيح والاستغفار، مصاحبة الأخيار، تأدية الحقوق والواجبات، تقوى الله والخوف من الله، مدارسة السيرة النبوية.

***

الفصلُ الخامس

أركانُ الإيمان

للإيمان أركانٌ ست، وهي:

الإيمان بالله تعالى.

الإيمان بالملائكة.

الإيمان بالكتب.

الإيمان بالرسل.

الإيمان باليوم الآخر.

الإيمان بالقدر خيره وشرّه.

وهي أمورٌ قلبية لا يطّلع عليها إلّا الله، لكن آثارها تظهر على سلوك المؤمن وفي أخلاقه والتزامه بتعاليم الدين. يؤكّد هذا قولُه ﷺ:

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[١]

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري (٨ / ١٢٥)، صحيح مسلم (١ / ٤٩).

الرّكنُ الأوّل: الإيمان بالله تعالى:

• الإيمانُ بوجود الله تعالى أمر فطري:

الإيمان بوجود الله تعالى أمرٌ مرْكوز في فطرة الإنسان، ولهذا لا يحتاج الإنسان لأدلّة مادية ليقتنع بأن الله تعالى موجود.

لقد خلقَ الإنسان، وفُطِر على الإيمان بوجود الله تعالى، وهو أمرٌ مركوز بداخله حتى لو انحرفت فطرته، فإنّه معقر من داخله بوجود ربه..

وأدلّ دليل على ذلك استغاثتُه بربّه عند تحقّق الخطر، أو عند تيقّنه بوقوع الضرر، قال تعالى عن عموم النّاس: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال عن جنس الإنسان: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[2].

حتى مشركو مكة على عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا سئلوا عن الخالق أجابوا: الله.

---

(١) سورة الروم، الآية :٣٣، ٣٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٢.

والقرآن الكريم أكّد على هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3].

لكنْ ربّما تنطمس الفطرةُ في وقت الرّخاء فتأتي الشدائد فتزيل الشوائب، فتعود الفطرة إلى أصلها.

أمَا ترى إلى المشركين وقد ركبوا البحر، وسارت بهم الفلكُ كما يحبّون، وفجأة تأتيهم الريح العاصف ويوشك أن يهلكوا فيعودون إلى الله وحده، مصداق ذلك:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية :١٣.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٨٤: ٨٩.

قولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

حتّى أشدّ الناس كفرًا وإنكارًا وجحودًا..

---

(١) (سورة يونس، الآية: ٢٢).

(٢)(سورة الأنعام، الآية: ٦٣).

(٣) (سورة النمل، الآية: ٦٠: ٦٤).

فرعون الذي زعم أنّه ليس في الكون إلهٌ غيره، ولا ربّ سواه، عندما أدركه الغرق عاد إلى الفطرة وأقرّ بوجود الله تعالى الذي كان ينكره؛ بل أقرّ بوحدانيته سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

• الإبداعُ في الكون دليلٌ على وجود الله ووحدانيته:

إنّ هذا الإبداع الموجودَ في الكون، هذه النجوم والكواكب والقمر والشمس والكون كله بما فيه الإنسان، لو تأمّلناه لوجدنا دقّةَ الصّنع وبديع الخلق وإحكام التنسيق ما يبهر العقول، واسأل الأطباء- مثلًا- عمّا في جسم الإنسان من الإبداع، واسأل الفلكيّين عما في الكون ونجومه وأقماره وعوالمه من الإبداع، واسأل كلّ أهل صنعة عمّا يجدونه من الدقة والحكمة والإبداع.

هذه الحكمة التي قام الكون عليها، ووجد الإنسان، ووجدتِ الحياة، وهذه الدقّة، هل يتصوّر أن تكون حصلت بمحض الصدفة؟ هذا مستحيل!

لقد وجد مِن قديم مَن يسمّون بالدهريّين (أي: الذين يقولون: ما يهلكنا إلّا الدهر، وليس هناك بعث ولا خالق). فقام الإمام أبو حنيفة- رحمه الله- يقول لبعضهم: أخبروني عن سفينةٍ في دجلة تذهب فتمتلئ من الطّعام

(١) (سورة يونس، الآية: ٩٠).

والمتاع وغيره بنفسها وتعود بنفسها فترسي بنفسها وتفرغ وترجع كلّ ذلك من غير أن يدبرها أحد، سفينة تحمل وتسير وتفرغ وترجع بدون ربان ولا قبطان ولا عمال.

فقالوا: هذا محالٌ لا يمكن أبدًا!! فقال أبو حنيفة: إذا كان هذا محالًا في سفينة، فكيف بهذا العالم كله علويّه وسفليّه!؟ فبُهتوا لما قال لهم: أنتم ما قبلتم هذا في سفينة كيف تقبلون العالم بغير مدبّر؟!.

• لكلّ حادثٍ محدِثٍ دليلٌ آخر:

إنّ للإنسان فطرة وعقلًا، يدرك بهما أنّ كلّ شيء يحدث في الكون لا بدّ له من محدث، وأن كلّ موجود لا بدّ له من موجد.

ولا يوجد أحدٌ من الخلق كائنًا مَن كان يدعي أنه خلق هذا الكون.

فلا يملك الإنسان إلّا التّسليم بأن خالق الكون هو الله وحده دون سواه.

ولا يعني أنّنا لا نرى ذات الله- جلّ في علاه- بأعيننا أنّه غير موجود كما يزعم بعض الناس من بينهم أحد زعماء الشيوعية الذي قال: إنّ الناس يقولون: إنّ الله موجود وهذا غيرُ صحيح، فإنّ عندنا آلات رصد، وعندنا ميكروسكوبات، وعندنا تلسكوبات، وآلات مقربة ومكبرة، ودقّقنا ونظرنا وما وجدنا شيئًا.

فقام أحدُ العلماء وردّ عليه بقوله: أنا أسأل هذا الزعيم الشيوعي: هل له روحٌ في جسده أو عقل في رأسه أم لا؟ فإن قال: نعم، فنقول:

روحك هل لمستها؟ هل رأيتها؟ هل شممتها؟ إذًا فهي غير موجودة، وكذا عقلك فهو غير موجود.

ولهذا:

لم يأتِ القرآن ليثبتَ وجود الله، بل جاء ليثبت وحدانية الله، وليعرفنا بالله وما يجب له وما يستحيل في حقّه.

ومِن مقتضيات الإيمان، أن تؤمن أنّ الله واحد أحدٌ فرد صمد، لا ندّ له ولا ولد، وأنه سبحانه وتعالى خلقَ ملائكة، وأرسل رسلًا، وأنزل كتبًا، وأنّه يجمع الخلائق ليوم الحساب، وأنه يقدر الأقدار فلا مبدل لأمره، ولا معقّب على حكمه، على التفصيل الذي سنذكره في حديثنا عن باقي أركان الإيمان.

الإيمانُ باليوم الآخر:

يعني أنْ نؤمن بالبعث بعد الموت، وبالوقوف بين يدي الله تعالى للحساب.. ومن ثمّ إمّا جنة أو نار.

وللإيمان باليوم الآخر مكانةٌ عظيمة حتّى إنّ الله تعالى قرن الإيمان به سبحانه بالإيمان باليوم الآخر في تسعة عشَرَ موضعًا في القرآن الكريم، ووصف سبحانه المؤمنين من كلّ أمّة بأنهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وبالمقابل فقد رتّب سبحانه على الكفر بذاك اليوم ما رتّبه على الكفر به، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية :١٣٦.

وأكّد سبحانه أنّ هذا اليوم واقع لا محالة، وأنّه لا مفرّ منه مهما حاول الإنسان ذلك، فقال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾[2] .

ومِن حكمة الله سبحانه أنْ جعل ذلك اليوم ليجمع الناس فيه على صعيد واحد، فيحاسب المحسن على إحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته، ويقتص للمظلوم من الظالم.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[3].

ومقتضى الإيمان بذاك اليوم يستلزم من المؤمن أن يعلم علمَ اليقين أن الله سبحانه جامع الناس ليوم لا ريبَ فيه، وأن يعلم أنّه محاسَب على عمله صغرَ أم كبر، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[4].

وهذا كفيلٌ بأن يجعل من إيمانه باليوم الآخر، دافعًا لكلّ خيرٍ مانعًا ورادعًا له من كلّ شر.

---

(١) سورة آل عمران، الآية :٢٥.

(٢) سورة النساء، الآية :٨٧.

(٣) سورة غافر، الآية :١٧.

(٤) سورة الزلزلة، الآيتان :٧، ٨.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[1].

ومن مظاهر اهتمام القرآن باليوم الآخر أنه لا تكاد تخلو سورة من سوره إلّا وفيها إشارة إليه؛ وتعدد أسمائه وكثرة دلالاتها تعني عظم شأنه.

• **أسماءُ اليوم الآخر في القرآن الكريم:**

لليوم الآخر أسماءُ عديدة، ولكلّ اسم دلالته، ومنها ما أضيف إلى اليوم، ومنها ما أطلق.

ومِن الأسماء التي أضيفت إلى اليوم في القرآن الكريم:

اليوم الآخر، يوم القيامة، يوم البعث، يوم الخروج، يوم الفصل، يوم الدين، يوم الحسرة، يوم الخلود، يوم الحساب، يوم الوعيد، يوم الآزفة، يوم الجمع، يوم التلاق، يوم التناد، يوم التغابن،

ومِن الأسماء التي أطلقت:

الساعة، القارعة، الحاقة، الصاخة، الطامَّة الكبرى، الغاشية، الواقعة.

• الأمرُ بالاستعداد ليوم القيامة:

والمؤمنُ يوقنُ أنّه راجع إلى ربه، وأنّه واقف بين يديه، وأنّ أعماله سوف تعرض على الله تعالى، ويؤمن أن الموتَ هو بداية القيامة، ومَن مات فقد

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري (٨ / ١٢٥)، صحيح مسلم (١ / ٤٩).

قامت قيامته لأنّه لن يستطيع أن يعمل خيرًا بعد موته، بل فقط ينتظر جزاء ما قدم في الدنيا.

ولذا أمر الإنسانُ بأن يكون دائمَ الاستعداد فأيّهما كان أقربَ فهو له مستعدّ، ولقد أمر النبي- ﷺ- المسلمين بالاستعداد للموت كما أمرهم بالاستعداد للقيامة، ولما سأله بعض الأصحاب عن وقت السّاعة، صرفهم النبي- ﷺ- إلى ما هو أهمّ: وهو الاستعداد.

فعَنْ أَنَس رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبيَّ - ﷺ- عَن السَّاعَة، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا»؟ قَالَ: لاَ شَيْءَ، إلَّا أَنِّي أُحبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قَالَ أَنَسٌ: فَما فرحْنَا بشَيْء، فَرَحْنَا بقَوْل النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: «فَأَنَا أُحبُّ النَّبيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْر، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ»[1].

والاستعداد لها يعني فعلَ الواجبات وترك المحرمات، فإذا وقع الإنسان في بعضها أسرع إلى التوبة ولم يسوّف، حتى لا يفاجأ بالموت، أو يفاجأ بأمارةٍ كبرى من أمارات الساعة.. وعندئذ لن تنفع التوبة ولن يجدي الندم.

فعن أبي هريرة أنّ رسول الله- ﷺ- قال: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبهَا، فَإذَا طَلَعَتْ منْ مَغْربهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ فَيَوْمَئِذٍ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»[2].

(١) متفق عليه، صحيح البخاري (٥/ ١٢)، صحيح مسلم (٤/ ٢٠٣٢).

(٢) صحيح مسلم (١/ ١٣٧) والآية من سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الْأَرْضِ»[1].

- **للإنسان حيواتٌ ثلاث:**

الأولى: الحياة الدنيا.

الثانية: حياة البرزخ.

الثالثة: الحياة الآخرة.

- الحياة الدّنيا:

فأمّا الحياة الدنيا فتبدأ بميلاد الإنسان وتنتهي بموته.

وبينَ الميلاد والموت يتقلّب حال الإنسان من حالٍ إلى حال، ضعف ثمّ قوة، ثمّ ضعف وشيبة، صحة ومرض، فقر وغنى، لا يبقى على حال حتى يأتيه أجله المحتوم.

قال تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[2].

عندئذ يوكّل الله- عزّ وجلّ- به ملكَ الموت فيقبض روحه، وملكُ الموت هو الملك الذي اختاره الله- عزّ وجلّ- وأوكله بهذه المهمّة، ولهذا الملك جنود وأعوان.

(١) صحيح مسلم (١/ ١٣٨).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

وبهذا نستطيع أن نوفّق بين آي القرآن الكريم، والتي ذكرت أولاها أنّ الله تعالى هو المتوفّي، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١]، وذكرت الثانية أن ملك الموت هو الذي يتوفى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[٢]، فهو يتوفى بأمر الله تعالى، وذكرت الثالثة أن لملك الموت جنودًا وأعوانًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[٣]، وهؤلاء الجنود من الملائكة هم: النازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، كما ذكرت سورة النازعات، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾[٤].

وقبل الموت يعالج الإنسان السّكرات، فإنْ كان صالحًا كانت كفارة لذنبه ورفعة لدرجته، وتبشره ملائكةُ الرحمن بما أعدّه الله له من الخير، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[٥]،

---

(١) سورة الزمر، الآية :٤٢.
(٢) سورة السجدة، الآية :١١.
(٣) سورة الأنعام، الآية :٦١.
(٤) سورة النازعات، الآية :١ : ٥.
(٥) سورة فصلت، الآية :٣٠، ٣١.

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وأمّا إنْ كان غيرَ صالح فإنّ الملائكة تعذّبه عند خروج الروح، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[2].

- **الثّانية: حياة البرزخ:**

وأمّا حياةُ البرزخ فتبدأ بالموت وتنتهي بالنفخ في الصور، وبعث الخلائق للوقوف بين يدي رب العالمين.

الموتُ ليس نهايةَ الإنسان كما يتصوّر البعض، لكنّه طور آخر في حياته، فبعدما كان في الدنيا يحيا بجسده والرّوح بداخله، أضحى بعد الموت حيًّا بروحه فقط، ولهذا أطلق عليها حياة البرزخ.

ويتلقّى الميت في قبره ملكان يتولّيان سؤاله عن ربه وعن دينه وعن نبيه، وتلك هي الفتنة، والثابت مَن ثبّته الله، والمخذول مَن خذله الله، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[3].

---

(١) سورة النحل، الآية :٣٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية :٩٣.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

لا يجوزُ للمسلم أن ينكرَ سؤال القبر ونعيمه وعذابه، لثبوت ذلك بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

ولا يصحّ أن نقيس ما يحصل للإنسان بعد الموت بمقاييس الدنيا؛ لأنّ الأمر مختلف تمامًا.

ويجبُ علينا أن نسلّم بالنصوص الثابتة (فقط)، دون أن نعمل عقولنا في كيفية حدوث النعيم أو العذاب لأنّه غيب والغيب علمه عند الله وحده.

- **الثّالثة: الحياة الآخرة:**

وهي حياةٌ كاملة للرّوح والجسد معًا، فتبعث الروح، وتعود إلى الجسد الذي يعيده الله تعالى كما بدأه أوّل مرّة.

تبدأ هذه المرحلة، وهي بالنفخ في الصور، نفخة أولى يموت معها كلّ شيء، ونفخة ثانية يبعث معها كلّ شيء ،قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[1]، ولا نهاية ولا فناء، فأهل الجنة خلود بلا موت، وأهل النار خلود بلا موت، ويسبق بعددٍ من الأمارات، قسمها العلماء إلى صغرى، وهي كثيرة وبدأت ببعثة النبي ﷺ، وكبرى وهي محصورة في تسع:

١. خروج المهدي.

٢. فتنة المسيح الدجال.

---

(١)) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

٣. نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.

٤. خروج يأجوج ومأجوج.

٥. طلوع الشمس من مغربها.

٦. خروج الدابة.

٧. الدخان الذي يكون في آخر الزمان.

٨. الخسوفات الثلاثة.

٩. النار التي تحشر الناس.

ويكون فيه أحداثٌ عظيمة، من بينها ما يلي:

البعث.

الحشر.

العرض على الله تعالى للحساب ونشر الصحائف.

شهادة الجوارح.

القصاص من العباد.

الميزان.

الشفاعة.

الصراط.

القنطرة[١].

---

(١) يمكن مراجعة ذلك بالتفصيل في: سلسلة: اعرف دينك- الإيمان باليوم الآخر (للمؤلف).

والسّاعة قريبة، وقربها لا يتخيّله الإنسان، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[٢].

وعن سَهْلُ بْنُ سَعْد- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ- ﷺ- قَالَ بِأُصْبَعَيْهِ هَكَذَا بِالْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»[٣].

وفي الآيتين والحديث دليلٌ على أن:

السّاعة قريبة، وقربها لا يتخيّله الإنسان؛ لأنّ النبي- ﷺ- قد بعث وهي ملازمة لبعثته.

وليس معنى اقترابها أنّنا نترك العمل ونتفرّغ للصلاة والصوم وما شاكل ذلك، بل إننا مأمورون بالعمل على كلّ حال.

ثمرةُ الإيمان باليوم الآخر واعتقاد قربه:

على المسلم أن يتّقي الله تعالى، ويراقبه، وأن يؤدّي واجبه نحو الله ونحو خلقه، ولا نؤخّر التوبة فالساعة قريبة والموت أقرب.

ولا يعني اعتقادُنا بأنّ السّاعة قريبة ترك العمل لإعمار الحياة..

بل علينا أنْ نجتهد غاية الاجتهاد؛ لأنّ رسول الله- ﷺ- أمرنا أن لا نترك العمل حتى ولو قامت القيامة.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٧٧.

(٢) سورة القمر، الآية: ١.

(٣) صحيح البخاري (١٥ / ٢٦٤).

فعن أَنَسَ بْنَ مَالك قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ[1].

والفسيلة: صغيرة النخلة، وهي لا تطرح ثمرًا قبل سنين، ومع ذلك قال لنا: فليغرسها، وهذا يؤكد لنا أن المسلم لا ينبغي أن يترك العمل.

الإيمانُ بالملائكة:

الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان في الدين الإسلامي، لا يتحقّق الإيمان إلّا به. وقد نصّ الله على ذلك في كتابه، وأخبر عنه النبي- ﷺ- في سنّته؛ قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[2]، ومن السّنة حديث جبريل المشهور، الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال: «بينما نحن عند رسول الله- ﷺ- ذات يوم إذْ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه منّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي

(١) مسند أحمد (٣/ ١٩١) وإسناده صحيح.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

الزكاة وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا. قال: صدقت. قال: فعجبنا له، يسأله ويصدّقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال ما المسئول عنها بأعلمَ مِن السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلدَ الأمَةُ ربَّتها، وأن ترى الْحُفاة العُراة، العَالة، رِعاءَ الشاء، يتطاولون في البنيان. قال: ثمّ انطلق فلبثت مليًّا، ثمّ قال لي: يا عمر، أتدري مَن السّائل؟ قلتَ: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل، أتاكم يعلّمكم دينكم»[١]. والإيمان بالملائكة يتضمّن عدّة أمور لا بدّ للعبد من تحقيقها حتى يتحقق له الإيمان بالملائكة، وهي:

الإقرار بوجودهم..

الإيمان بأنّهم خلق كثير جدًّا لا يعلم عددهم إلّا الله تعالى، لقوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[٢]. وفي حديث الإسراء، قال ﷺ: «ثمّ رفع لي البيت المعمور، فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور، يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم»[٣].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٨).

(٢) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري برقم (٣٢٠٧)، ومسلم برقم (١٦٤)، واللفظ لمسلم.

الإقرارُ لهم بمقاماتهم العظيمة عند ربهم وكرمهم عليه وشرفهم عنده؛ لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴾[1]، كما أنه تعالى أقسم بهم في غير موطن من كتابه، وهذا لشرفهم عنده، فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾[2].

اعتقاد أنّهم يتفاوتون في الفضل والمنزلة عند الله، لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾[3].

وأفضل الملائكة: المقرّبون مع حملة العرش. وأفضل المقربين الملائكة الثلاثة الوارد ذكرهم في دعاء النَّبيّ- ﷺ- يَفْتَتِحُ الصَّلاَةَ. قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُفْتَتَحُ صَلاَتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[4]؛ وأفضل الثلاثة جبريل- عليه السلام- وهو الموكّل بالوحي، وسماه بأشرف الأسماء، ووصفه بأحسن الصفات. فمِن

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦، ٢٧ .

(٢) سورة الصافات، الآية: ١-٣ .

(٣) (سورة الحج، الآية: ٧٥).

(٤) سنن الترمذي، تحقيق شاكر والألباني (٥ / ٤٨٤)، قال الشيخ الألباني: صحيح ، سنن أبي داود (١ / ٢٧٩). وأخرجه أحمد والنسائي.

أسمائه الرّوح، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[1]. وقال عزّ وجلّ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾[2]. ووصفه الله تعالى بأوصافٍ عديدة، قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[3].

١. أصلُ خلقتهم:

الملائكة: جمع، مفردُه: مَلَك.

وهُم: خلقٌ من مخلوقات الله تعالى، لهم أجسامٌ نورانية لطيفة، قادرة على التشكل، والتصور بالصور الكريمة، ولهم قوى عظيمة، ولديهم قدرةٌ كبيرة على التنقل، وهُم خلق كثير لا يعلم عددهم إلّا الله تعالى، قد اختارهم الله واصطفاهم لعبادته والقيام بأمره، فلا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

والمادة التي خلق الله منها الملائكة هي «النور».

لقوله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور. وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[4].

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣.

(٢) سورة القدر، الآية: ٤.

(٣) سورة التكوير، الآية: ١٩– ٢١ .

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).

٢. من صفاتهم:

القوّة والشدّة:

لقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾[١]، وقوله تعالى في وصف جبريل عليه السلام ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾[٢].

عظمُ الأجسام والخلق:

لقولِه ﷺ عندما سئل عن معنى قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾[٣]، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطًا من السماء، سادًّا عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض»[٤].

ولقول ابن مسعود رضي الله عنه: «رأى رسول الله- ﷺ- جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كلّ جناح منها قد سدّ الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم»[٥].

ولقوله ﷺ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إنّ ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام»[٦].

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة النجم، الآية: ٥.

(٣) سورة التكوير، الآية: ٢٣.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٧٧).

(٥) مسند الإمام أحمد: (١ / ٣٩٥)، (٦ / ٢٩٤).

(٦) سنن أبي داود: (٥ / ٩٦)، برقم (٤٧٢٧).

يتفاوتون في الخلق:

فمنهم مَن له جناحان، ومنهم مَن له ثلاثة، ومنهم مَن له أربعة، ومنهم مَن له ستمائة جناح. قال تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[1].

الحسن والجمال:

لقوله تعالى في حقّ جبريل عليه السلام ﴿**عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ**﴾[2]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذو مرّة: ذو منظر حَسَن»، وقال قتادة: «ذو خلق طويل حسن».

وقال تعالى مخبرًا عن النّسوة عند رؤيتهن ليوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[3]، وإنما قلن ذلك لأنه قد استقرّ في اعتقاد الناس، وصف الملائكة بالجمال الباهر.

كرامٌ أبرار:

لقوله تعالى ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾[4] ؛ ولقوله عزّ وجلّ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾[5].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٥، ٦.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣١.

(٤) سورة عبس، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٥) سورة الانفطار، الآيتان: ١٠، ١١.

الحياء:

لقوله- ﷺ- في حقّ عثمان رضي الله عنه: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة»[١].

مساكنهم في السماء:

ويهبطون إلى الأرض تنفيذًا لأمر الله، ثمّ يصعدون، لقوله تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾[٢]، ولقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[٣]؛ وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، ثمّ يعرجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم اللهُ وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلون»[٤].

لا يوصفون بالأنوثة:

لقوله تعالى إنكارًا على الكفار: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾[٥]. ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾[٦].

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٤٠١).

(٢) سورة النحل، الآية: ٢.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري برقم (٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

(٥) سورة الزخرف، الآية: ١٩.

(٦) سورة النجم، الآية: ٢٧.

معصومون من الخطأ:

فلا تقعُ منهم الذنوب، بل طبعَهُم الله على الطّاعة وعدم المعصية: كما قال تعالى في وصفهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١].

لا يفترون عن العبادة ولا يسأمون (يملّون)، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[٢]، ولقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾[٣].

وظائفُ الملائكة:

الملائكةُ جندٌ من جنود الله تعالى، أسندَ الله إليهم كثيرًا من الأعمال الجليلة، والوظائف الكبيرة، وأعطاهم القدرةَ على تأديتها على أكمل وجه، وهم بحسب ما هيّأهم الله تعالى له ووكلهم به على أقسام، فمنهم:

الموكّلُ بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصّلاة والسّلام، وهو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[٤]، وقد تقدّم أنّه أفضل الملائكة وأكرمُهم على الله، وقد وصفه الله بالقوّة والأمانة على تأدية مهمته.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٩، ٢٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣- ١٩٥ .

الموكّل بالقَطْر والنّبات، وهو ميكائيل عليه السلام، وقد ورد ذكره في القرآن، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

الموكّل بالنّفخ في الصُّور، وهو إسرافيل عليه السّلام، وهو ثالث الملائكة المفضلين. والصور: قرن عظيم ينفَخ ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث. قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[2]. وهذه هي نفخة الفزع، وقد دلّ على النفختين الأخريَيْن قولُه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[3].

الموكّل بقبض الأرواح، وهو ملكُ الموت، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾[4]. ولملك الموت أعْوان من الملائكة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[5].

ومنهم الموكّل بالجبال، وهو ملك الجبال، وقد ورد ذكره في حديث خروج النبي- ﷺ- إلى أهل الطائف في بداية البعثة ودعوته إيّاهم وعدم

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٢) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١١.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

استجابتهم له، وفيه يقول النبي ﷺ: «فإذا أنا بسحابة قد أظلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال. فسلم عليّ ثمّ قال: يا محمد. فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أنْ أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي -ﷺ- بل أرجو أن يخرجَ اللهُ مِن أصْلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[1]. والأخشبان: هما جبلا مكّةَ: أبو قبيس والذي يقابله.

ومنهم الملَك الموكّل بالرّحم، على ما دلّ عليه حديث أنس بن مالك- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «إنّ الله- عزّ وجلّ- وكّل ملكًا يقول: يا ربِّ! نطفة. يا ربِّ! علقة. يا ربِّ مضغة. فإذا أراد أن يقضي خلقه، قال: أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ فيكتب في بطن أمّه»[2].

ومنهم حملةُ العرش، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[4].

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، برقم (٣٢٣١)، ومسلم برقم (١٧٩٥).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري برقم (٣١٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٦).

(٣) سورة غافر، الآية: ٧.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ١٧.

ومنهم خزنةُ الجنّة، قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[1].

ومنهم خزنةُ النّار، نعوذ بالله منها، وهُم الزّبانية، ورؤساؤهم تسعة عشر. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧) سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[5].

ومنهم ملائكة سيّاحون يلتمسون مجالسَ الذّكر، ففي الحديث الشريف: «إنّ لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوا هلمّوا إلى حاجتكم، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السّماء الدنيا»[6]. ويبلغون النبي- ﷺ- من أمّته السلام، لقوله ﷺ: «إنّ لله- عزّ وجلّ- ملائكة سيّاحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام»[7].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٩.

(٣) سورة العلق، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٤) سورة المدثر، الآية: ٣٠.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

(٦) متفق عليه، صحيح البخاري برقم (٦٤٠٨)، ومسلم برقم (٢٦٨٩) واللفظ للبخاري.

(٧) مسند أحمد، ١ / ٤٥٢.

ومنهم الكرام الكاتبون، ومهمّتهم كتابة أعمال الخلق وإحصاؤها عليهم. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2]، ملك عن يمينه يكتب الخير، وملك عن شماله فيكتب الشر.

ومنهم الموكّلون بفتنة القبر، وسؤال العباد في قبورهم، وهُما مُنْكَر ونَكِير. قال ﷺ: «إنّ العبد إذا وضع في قبره وتولّى عنه أصحابه، وإنّه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؛ لمحمّد ﷺ؟ فأمّا المؤمن فيقول أشهد أنّه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة. فيراهما جميعًا»[3] .

الإيمانُ بالكتب:

خلقَ الله- سبحانه وتعالى- الإنسانَ على الفطرة، مجبولًا على التوحيد والإيمان، وأرسل رسلًا لتذكيرهم بالله، وتبشيرهم بالجنة إنْ عبدوه، وتخويفهم بالنار إنْ عصوه؛ وأنزل كتبًا، يعرفون من خلالها ربهم وتوضح لهم الطريق الذي إنْ ساروا عليه نجوا، بل وسعدوا في الدنيا والآخرة.

---

(١)) سورة الانفطار، الآيات: ١٠- ١٢.

(٢) سورة ق، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٣) متفق عليه، صحيح البخاري برقم (١٣٧٤)، ومسلم برقم (٢٨٧٠)، واللفظ للبخاري.

والكتب: جمع كتاب، والكتاب مصدر كتب يكتب كتابًا، ثمّ سمي به المكتوب، والكتاب في الأصل اسم للصّحيفة مع المكتوب فيها، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾[1]، يعني صحيفة مكتوبٌ فيها.

والمرادُ بالكتب هنا:

الكتب والصّحف التي حوت كلامَ الله تعالى الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام، سواء ما ألقاه مكتوبًا كالتّوراة، أو أنزله عن طريق الملك مشافهةً فكُتب بعد ذلك كالقرآن.

والإيمانُ بكتب الله التي أنزلها على رسله كلّها ركنٌ من أركان الإيمان، لا يتحقّق الإيمان إلّا به، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2].

والكتابُ الذي أنزل على رسوله هو القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبْل هو جميع الكتب السابقة: كالتوراة، والإنجيل، والزبور.

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٣٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

وقال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[١].

وذكرت السّنةُ الإيمانَ بالكتب، ففي حديث جبريل المشهور، وقد قال للنبي ﷺ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ فقال ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[٢].

الإيمانُ بالكتب لا يتمّ إلّا بما يلي:

أوّلًا: الإيمانُ باالكتب الأربعة، التي أنزلها الله عزّ وجلّ، وهي:

القرآن: وقد نزل على سيدنا محمّد ﷺ..

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾[٣].

التّوراة: كتاب الله الذي أنزله على موسى عليه السلام، وقد نزلت مكتوبة في ألواح.

قال تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾[٤] (سورة الأعراف: ١٤٥).

قال ابن عباس (يريد ألواح التوراة).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

(٢) صحيح مسلم (١ / ٢٨).

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٢.

وفي حديثِ احتجاج آدم وموسى من رواية أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ. فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلاَمِهِ وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى».(١).

الإنجيل: كتابُ الله الذي أنزله على عيسى ابن مريم عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٢).

وقد أنزل الله الإنجيل مصدّقًا للتوراة، وموافقًا لها، إلّا في قليل من الأحكام مما كانوا يختلفون فيه، كما أخبر الله عن المسيح أنّه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾(٣).

الزّبور: كتابُ الله الذي أنزله على داود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾(٤).

---

(١) سنن أبي داود (٤ / ٣٦٢) وأصل الحديث متفق عليه، صحيح البخاري برقم (٦٦١٤)، ومسلم برقم (٢٦٥٢).

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

ثانيًا: الإيمانُ بصحف إبراهيم وموسى:

وقد جاء ذكرُها في موضعيْن من كتاب الله:

الأوّل في سورة النجم، في قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

الثّاني في سورة الأعلى، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[2].

ثالثًا: الإيمانُ بكلّ ما أنزل الله على أنبيائه ورسله:

لقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3].

فنؤمنُ بكلّ كتاب أنزله الله على كلّ رسولٍ أرسله الله

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٦-٣٩.

(٢) سورة الأعلى، الآيات: ١٤- ١٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٣٦.

رابعًا: الإيمانُ بأنّها جاءت بالهدى والنور:

لقوله تعالى عن التوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[١]. وقال تعالى عن الإنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[٢]. وقال تعالى عن القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[٣].

خامسًا: الإيمانُ بأنها جميعًا يصدّق بعضها بعضًا:

فلا تناقضَ بينها ولا تعارض، كما قال تعالى في القرآن ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا﴾[٤]. وقال في الإنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾[٥].

وهذا من أعظم ما يميّز كتب الله عزّ وجل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٦].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢- ٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٦.

(٦) سورة النساء، الآية: ٨٢.

سادسًا: الاعتقادُ الجازم بأنّ القرآن الكريم يمتاز على الكتب السابقة بعدّة خصائص:

(١) نسخ جميع الكتب التي أنزلها الله على رسله:

لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم ﴾[١]، وقول النبي ﷺ: «لو أنّ موسى كان حيًّا، ما وسعه إلّا أن يتبعني»[٢].

(٢) نزل لجميع المكلّفين من الإنس والجن:

لقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤].

(٣) محفوظٌ من التحريف والتبديل:

لأنّ الله تعالى تكفّل بحفظه، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٥] . لقد تكفل اللهُ تعالى بحفظه، فعلّمه لنبيه ﷺ، ثمّ جمعه

(١) سورة المائدة، الآية :٤٨.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣ / ٣٨٧ .

(٣) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٤) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

(٥) سورة الحجر، الآية: ٩.

في صدره، وهيّأ سبحانه جيلًا من الصّحابة هُم خيار الخلق بعد الأنبياء؛ فحفظوه في الصّدور والسطور، واستمر خيار المسلمين على مدى تاريخ الأمّة الإسلامية يحفظون القرآنَ في صدورهم، وفي كتب هي المصاحف بطبعاتها المختلفة، لا تختلف واحدة عن الأخرى إلّا في الحجم وعدد الأسطر في الصفحة.. وما شاكل ذلك. وقد لمس الجميعُ تلك الكرامات؛ حيث يتنافس الأطفال دون العاشرة في حفظ القرآن الكريم حتى حفظ البعضُ أرقام الآيات والصفحات وموضع الكلمة في الصفحة، وهذا كله من حفظِ الله تعالى لكتابه، ولا نجد هذا إلّا للقرآن الكريم فحسب.

أمّا غيره من الكتب السابقة فحصل فيها تبديلٌ وتحريف وزيادة ونقصان، لأنّ الله- عزّ وجلّ- أوكَلَ حفظها للأحبار والرهبان، فلم يستطيعوا تحمّل هذه الأمانة العظيمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾[1]، فوقع التحريف والتبديل في الكتب السابقة.

ولا يخفى أنّ:

الله تعالى قد تكفّل بحفظ كتابه (القرآن الكريم) لأنّه آخر الكتب، ونزل على آخر الأنبياء وخاتمهم ﷺ، فأبقاه الله تعالى دستورًا للخلق يرجعون إليه، وهداية للحيارى يستدلون به على المنهج الحق.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

إضافةً إلى كونه:

المعجزة العظمى وحجّة الله البالغة الباقية التي أيّد بها نبيّه- ﷺ- وأتباعه إلى قيام الساعة.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي، ﷺ، قال: «ما من الأنبياء نبي إلّا أعطي من الآيات ما مثله آمنَ عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[1].

وقد تحدّى اللهُ تعالى الإنس والجن..

تحدّاهم على أن يأتوا أولًا بمثله فعجزوا، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾[2].

ثمّ تحدّاهم ثانيًا بأن يأتوا بعَشْر سور مثله فعجزوا، قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[3].

ثمّ تحدّاهم مرّة ثالثة بأن يأتوا بسورة فعجزوا، قال تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[4].

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري برقم (٤٩٨١)، ومسلم برقم (١٥٢).

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٣) سورة هود، الآية: ١٣.

(٤) سورة يونس، الآية: ٣٨.

(١) الإيمانُ بالرّسل:

خلق الله- سبحانه وتعالى- الإنسانَ على الفطرة، مجبولًا على التوحيد والإيمان، وأرسل رسلًا لتذكيرهم بالله، وتبشيرهم بالجنة إنْ عبدوه، وتخويفهم بالنار إنْ عصوه، وأيدهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، حتى لا يكون للناس حجةٌ على الله تعالى، قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[١].

• تعريفُ النبي والرسول، والفرق بينهما:

النبي في اللغة:

مشتقّ من النبأ، وهو الخبرُ ذو الفائدة العظيمة.

قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ① عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[٢].

وسمّي النبي نبيًّا لأنه مُخبرٌ عن الله.

وقيل: النبي مشتق من النباوة، أي الشيء المرتفع.

وسمّي النبي نبيًّا على هذا المعنى: لرفعة قدره على سائر الخلق.

والرّسول في اللغة: مشتقّ من الإرسال وهو التوجيه. قال تعالى مخبرًا عن ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾[٣].

---

(١) (سورة النساء، الآية: ١٦٥)

(٢) (سورة النبأ، الآيتان: ١، ٢).

(٣) (سورة النمل، الآية: ٣٥).

وقد اختلف العلماءُ في تعريف كلّ من النبي والرسول في الشرع على أقوال عديدة، والذي أميل إليه:

أنّ النبي: هو مَن أوحى اللهُ إليه وأمرَه بتبليغ وتذكير المؤمنين.

والرسول: هو مَن أوحى الله إليه وأرسله إلى أمم مكذّبة ليبلغهم ويذكرهم.

فالفرق بينهما:

أنّ النبي يخاطب المؤمنين ويذكّرهم على هدي رسول سابق. فمهمّته تشبه مهمة علماء هذه الأمة، لكنه يتميّز عنهم أنّه يوحى إليه، وربما تجري على يديه معجزات.

بينما العلماء يعلّمون الناس ويبلّغونهم ما تعلّموه من هدي النبي ﷺ، ولا يوحى إليهم ولا تجري على أيديهم معجزات.. ويجوز أن تجري على أيدي الصالحين منهم كرامات.

أمّا الرسول فهو مَن أرسل إلى الكفار والمؤمنين ليبلّغهم رسالة الله ويدعوهم إلى عبادته.

ولا يلزم أنْ يأتي الرّسول بشريعة جديدة؛ لأنّ يوسف عليه السّلام كان على ملّة إبراهيم عليه السلام، وداود وسليمان كانا على شريعة موسى (التوراة)، وكلّهم رسل عليهم الصلاة والسلام. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

(١) (سورة غافر، الآية: ٣٤).

وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[1]؛ فسمّاهم الله رسلاً.

- وجوبُ الإيمان بجميع الأنبياء والرسل:

الإيمانُ برسل الله تعالى وأنبيائه، ركنٌ عظيم من أركان الإيمان، لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ ﴾[2].

وقد بيّن الله تعالى في كتابه حُكمَ مَن كفر بالرسل أو ببعضهم؛ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ ﴾[3].

وأمّا السنة، فقد ورد فيها ما يؤكّد على أنّ الإيمان بالرسل ركنٌ من أركان الإيمان، وقد دَلّ على ذلك حديثُ جبريل المشهور، وقد قال للنبيﷺ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ فقال ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[4].

---

(١) (سورة النساء، الآيتان: ١٦٣، ١٦٤).

(٢) (سورة البقَرة، الآية: ٢٨٥).

(٣) (سورة النساء، الآية: ١٥٠، ١٥١).

(٤) صحيح مسلم (١ / ٢٨).

فمَن كذّب بالرّسل، أو بواحد منهم؛ فقد كفر بالله عزّ وجلّ

• مُقتضى الإيمان بالرّسل:

الإيمانُ بالرّسل يعني ما يلي:

(١) التّصديق الجازم بأنّ الله تعالى بعث في كلّ أمّة رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والكفر بما يعبَد من دون الله. قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ** ﴾[١] .

(٢) الاعتقادُ بأنهم قد بلغوا جميعَ ما أرسلوا به، وأنهم صدقوا في كلّ ما أخبروا به، قال تعالى: ﴿**لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ **رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ** ﴾[٣].

(٣) الإيمانُ بأنّ الرسل بشرٌ منَّ الله عليهم بالرسالة، فهُم لأجل ذلك خير البشر، قال تعالى: ﴿**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ**﴾[٤].

---

(١) (سورة النحل، الآية: ٣٦).

(٢) (سورة الجن، الآية: ٢٨).

(٣) (سورة النساء، الآية: ١٦٥).

(٤) (سورة إبراهيم، الآية: ١١).

(٤) ليسَ لهم شيء من خصائص الرّبوبية، لقوله تعالى آمرًا نبينا محمدًا ﷺ أنْ يقول لقومه: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ ﴾[(١)]. وقد قال ﷺ: «لاَ تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّما أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه»[(٢)].

(٥) الإيمان بأنّ الله تعالى فاضل بينهم، لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ﴾[(٣)].

(٦) لا نفرّق بينهم في درجة الإيمان بهم، وبما نزل عليهم من الوحي، لقوله تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[(٤)].

(٧) الإيمانُ بمَن ذكر اللهُ تعالى أسماءهم في القرآن الكريم، وهُم خمسة وعشرون. ورد ذكر ثمانية عشر منهم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ

---

(١) (سورة الأنعام، الآية: ٥٠).

(٢) صحيح البخاري (٤ / ٢٠٤).

(٣) (سورة البقرة، الآية: ٢٥٣).

(٤) (سورة البقرة، الآية: ١٣٦).

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[(١)]، وورد ذكرُ الباقين في مواضعَ أخرى من القرآن. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[(٣)]، وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[(٤)]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾[(٥)]، وقال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾[(٦)]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[(٧)].

(٨) الإيمانُ بما جاءت به النصوصُ من ذكر فضائلهم وخصائصهم وأخبارهم، كاتخاذ الله إبراهيمَ ومحمدًا ﷺ خليليْن، لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾[(٨)]. ولقول النبي ﷺ: «إنّ الله اتخذني خليلًا كما اتّخذ إبراهيم خليلاً»[(٩)]. وتكليم الله تعالى لموسى تكليماً، لقوله تعالى:

---

(١) (سورة الأنعام، الآيات: ٨٣-٨٦).

(٢) (سورة الأعراف، الآية: ٦٥).

(٣) (سورة الأعراف، الآية: ٧٣).

(٤) (سورة الأعراف، الآية: ٨٥).

(٥) (سورة آل عمران، الآية: ٣٣).

(٦) (سورة الأنبياء، الآية: ٨٥).

(٧) (سورة الفتح، الآية: ٢٩).

(٨) (سورة النساء، الآية: ١٢٥).

(٩) صحيح مسلم برقم (٥٣٢).

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[1]. وتسخير الجبال والطير لداود يسبّحن بتسبيحه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2]. وإلانةُ الحديد لداود كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾[3]. وتسخير الرياح والجنّ لسليمان، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾[4]. وتعليم سليمان منطق الطير، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾[5].

(٩) طاعتُهم طاعةً مطلقة؛ لأنهم ما أرسلوا إلّا ليُطاعوا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[7].

---

(١)(سورة النساء، الآية: ١٦٤).

(٢) (سورة الأنبياء، الآية: ٧٩).

(٣) (سورة سبأ، الآية: ١٠).

(٤) (سورة سبأ، الآية: ١٢).

(٥) (سورة النمل، الآية: ١٦).

(٦) (سورة النساء، الآية: ٦٤).

(٧) (سورة المائدة، الآية: ٩٢).

(١٠) اعتقادُ فضلهم على غيرهم من الناس، وأنّه لا يبلغ منزلتهم أحد من الخلق مهما بلغ من الصّلاح والتقوى؛ لأنّ الرّسالة اصطفاء من الله يختصّ الله بها من يشاء من خلقه، ولا تُنال بالاجتهاد والعمل والكسب، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾[١].

والحديثُ في هذا الرّكن له تفاصيل أخرى، يمكن مراجعتها في كتب العقيدة[٢].

الرّكنُ السّادس: الإيمانُ بالقدر

الإيمانُ بالقدر أحدُ أركان الإيمان السّتة، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[٣]، وقوله تعالى ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾[٥]، ولقوله- ﷺ- في حديث جبريل حين سأله عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»[٦].

ولا يتمّ الإيمانُ بالقدر إلّا بأربعة أمور يجب أن نوقن بها:

أوّلًا: يجب أن نوقنَ بأنّ الله يعلم كلّ شيء، ولا يخفى عليه شيء، وعلمه أزلي؛ أي يعلم الشيء قبل حدوثه.

---

(١) (سورة الحج، الآية: ٧٥).

(٢) يمكن مراجعة: سلسة اعرف دينك- أركان الإيمان- الركن الخامس- الإيمان بالرسل.

(٣) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٢.

(٦) سورة الروم، الآية: ٣٠ .؟؟؟؟؟؟؟

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

ثانيًا: يجب أن نوقنَ بأنّ الله بعلمه كتبَ مقاديرَ كلّ شيء في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[4].

ومن السّنة حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.. «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقال: وكان عرشه على الماء»[5].

وهو المرادُ من قول موسى- عليه السّلام- لفرعون عندما سأله: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[6]، أجاب موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾[7]، أي أنه سبحانه ليس بحاجة إلى كتابٍ ليذكّره، فهو سبحانه لا ينسى ولا تختلط عليه الأمور، وإنما كتبه في كتاب لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٣.

(٣) سورة الحج، الآية: ٧٠.

(٤) سورة يس، الآية: ١٢.

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣).

(٦) سورة طه، الآية :٥١.

(٧) سورة طه، الآية: ٥٢.

ثالثًا: أنْ نوقن بأنّه لا يقع شيء في الكون- لا في السموات ولا في الأرض- إلّا بإرادة الله ومشيئته.

وما يكون من شيء إلّا وهو مطابقٌ لما سبق في علمه، ولا يخالف المكتوب في اللوح المحفوظ.

ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فعّال لما يريد.

فلا يستطيع أحدٌ مهما كان، ولا حتى الأمّة كلّها، ولا الإنس ولا الجن؛ أن يفعلوا شيئًا خارجًا عن إرادة الله، بل ما يريده الله في الكون كلّه يكون.. وأمرُه بين الكاف والنون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، فإن أراد بعبد خيرًا فلا يملك أحد منعه، وإن أراد بعبد ضرًّا فلا يملك أيضًا أحدٌ منعه، ولا يكشفه إلّا هو سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، وقال تعالى :﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧١.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٧.
(٤) سورة فاطر، الآية: ٢.

رابعًا: أن نؤمن بأنّ الله خالق كلّ شيء، لا خالق غيره سبحانه وتعالى، ولا ربّ سواه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[2]. وقال ﷺ: «كان الله ولم يكنْ شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء وخلق السماوات والأرض»[3].

وما يعمله الإنسانُ فهو خلق الله عزّ وجلّ، غير أنّ للإنسان إرادة يوجّهها كيفما شاء وترك الله له الاختيار بين الخير والشّر.. فإذا توجّهت إرادته وهمته للخير أعانه الله وأثابه عليه، وهو ما يسمّى بالتوفيق والهداية، وإنْ توجّهت إرادتُه للشّر تركه الله وشأنه، ولم يسلبه قوته، وحاسبه عليه.. وهو ما يسمّى بالخذلان والإضلال.

• ثمرةُ الإيمان بالقدر:

وثمرةُ الإيمان بالقدر- إضافةً إلى تحقيق أركان الإيمان- تحقيق الطمأنينة النفسية والسعادة القلبية.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا...﴾[4].

فلنْ يدفع عنا أحدٌ ضرًّا أراده الله بنا..

ولن يمنع عنّا أحد خيرًا أراده الله لنا..

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

(٣) صحيح البخاري برقم (٣١٩١).

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥١.

فتوكُّلُنا على الله واستعانتنا بالله؛ هوَ وحده النّافع الضار، المعزّ المذل، مالك الملك جل في علاه.

قال ﷺ: «احْفَظ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[١]..

ولقد قال رسولُ الله - ﷺ- لقومه كما حكى القرآن الكريم ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٢].

- القدرُ كلّه خير:

اعلمْ أنّ الله تعالى أرحمُ بعباده من الأمّ بولدها، كما قال ﷺ: «أَتَرَوْنَ هذه الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا في النَّار». قُلْنَا لاَ وَاللَّهِ.. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ- ﷺ-: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[٣]، فلا يختار اللهُ لعبده إلّا الخير، وإن بدا في ظاهره شرًّا، ولا يعارض هذا قول النبي ﷺ: «والقدر خيره وشرّه»، إذْ مرادُ النبي- ﷺ- ما كان ظاهره شرًّا؛ لأنّ القضاء قد يكون شرًّا على الإنسان باعتبار المرارةِ والألم الذي يشعر به وقت نزول البلاء، لكن البلاء في حقيقته

---

(١) سنن الترمذى - مكنز - (٩ / ٤٣٠)، قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) سورة الزمر، الآية :٣٨.

(٣) صحيح مسلم (٨ / ٩٧).

ما أنزله الله بالعبدِ ليضرّه أو ليؤذيه، إنّما أنزله به لحكمة عظيمة وغاية جليلة، إما أن يكون الإنسان شاردًا بعيدًا عن ربّه فلعله أن يعود، وإمّا أن يكون عاصيًا فلعلّه أن يتوب، وإمّا أن يكون صالحًا مطيعًا فيرفع له سبحانه درجته، ويعلي مكانته، ويعطيه أجره بغير حساب، إذًا كله خير.

حتّى الكفار.. الله تعالى يذيقهم العذاب الدّنيوي لعلّهم يرجعوا إليه ويؤمنوا به، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

فأنت تلحَظ في الآيتين الكريمتين أنّ عذاب الله في الدنيا سينزل بفريق من الناس، لكن نزول العذاب ليس مقصودًا به الألم فحسب، بل مقصوده أن يرجع الناس (كفارًا أو مسلمين عاصين) إلى ربهم، فما يكون إلّا الألم السريع الظاهر الذي يكون من نتيجته التوبة، فالمغفرة، فالفوز بالجنة.

وأمّا الطائعون فإنّ الله- عزّ وجلّ- يبتليهم بالشر الظاهر ليرفع درجتهم ويكفر ما يكون من خطاياهم.

وأفضلُ الخلق- ﷺ- ابتلاه ربّه، وقدر عليه أشياء، ظاهرُها الشّر؛ فولد يتيمًا، وعاش مسكينًا، ومات أولاده كلّهم في حياته إلّا فاطمة رضي الله عنها، وماتت زوجته الحبيبة خديجة، وأوذي من الأعداء، وابتلي بالمرض، وواجه

(١) سورة السجدة، الآية :٢١.

(٢) سورة الروم، الآية :٤١.

أعداءه في معارك عديدة،... كلّ ذلك وهو صابرٌ محتسب؛ فرفع الله درجته وأعلى مكانته. وكلّ الأنبياء والصالحين هكذا، ابتلاهم الله بالشرّ الظاهر لرفعة درجاتهم وإعلاء مكانتهم، فما كان شرًّا... بل هو الخير في حقيقته.

وهذه الصّدّيقة بنت الصّديق- رضي الله عنها- يرميها الناس بالزّنا وهي منه بريئة، وينزل الله براءتها في كتابه الكريم.. ويحسبه الناس شرًّا، و ما هو إلّا الخير.. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾[1]، فالقدر كله خير وإن بدا شرًّا.

وقصّة الخضر مع موسى- عليهما السلام- تؤكّد هذا، فخرقُه للسفينة شرٌّ ظاهر، الهدف منه المحافظة عليها لأصحابها المساكين بدلًا من أن يأخذها الملكُ الظالم غصبًا، فعطلُ السيارة مثلًا أهون من ضياعها.. أو أهون من عمل حادثة قد تكون عواقبها كارثيّة.

وقتلُه للغلام فيه مصلحةٌ للأبوين وللغلام أيضًا.. فالوالدان حماهما من الطّغيان والكفر، والغلام مات مبكرًا لينقذه من الخلود في النار لو ترك حتّى البلوغ وكفر. ثمّ يكون الفضلُ بالإبدال خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا.

قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا

(١) سورة النور، الآية: ١١.

فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [سورة الكهف الآيات: ٧١ – ٨١]

- علمُ الله ليس جبرًا:

قد يعتقد بعضُ النّاس أنّ الله جبرهم على فعل المعاصي، لكنّا نقول: علم الله سبحانه صفةٌ ثابتة له، فهو العليم بكلّ شيء، يستوي عنده الشيء الذي وقع، والشيء الذي لم يقع؛ لأنّ الله سبحانه يعلم ما قد كان وما هو كائن، وما سيكون.. وليس معنى أنّه علم الشيء عن إنسان ما أنّه جبره على فعله؛ لأنّ العلم شيء والجبرَ شيء آخر.

ثمّ إنّ العاصي أقبلَ على المعصية لكوْنه يريد المعصية، ورأى أنها توافق هواه، ولا يعرف أصلًا ماذا قدر اللهُ عليه.. ولولا أنّها كانت توافق هواه لما أقبل عليها، فكيف للعاصي أن يحتجّ بما يجهل (ما قدر الله عليه) على ما عمله تبعًا لهواه.

• هل يجوزُ الاحتجاج بالقدر؟

ربّما يفعل بعضُ الناس المعاصي ويحتجّون بالقدر، كما فعل المشركون حيث قالوا: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾[1]، وهذا لا يصحّ لأنّ الله سبحانه أخفى علينا وعنّا ما كتبه، فنحن لا نعرفه، وتصرّفنا التصرّف الذي أملاه علينا هوانا أو أملاه علينا تفكيرُنا، غير عالمين بما كتب الله، ولكن الذي عملناه هو عينُ ما كتبه الله لعلمه سبحانه بما سنعمل قبل أن نعمله.

لكن.. يجوز للذي عمل عملًا سيئًا ثمّ تاب من ذلك العمل فلامَهُ أحدٌ عليه؛ أن يحتج بالقدر، وهذا هو الذي فعله آدم- عليه السلام-، قال ﷺ: «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ عِنْدَ رَبِّهِمَا فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى قَالَ مُوسَى أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ ثمّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ فَقَالَ آدَمُ أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كلّ شَيْءٍ وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللَّهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ قَالَ مُوسَى بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) قَالَ نَعَمْ.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

قَالَ أَفَتَلُومُني عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟! قَالَ رَسُولُ اللهِ- ﷺ- «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[1].

والمعنى: أتلومني على مصيبةٍ قدّرت عليَّ وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة.

وهكذا يأتي القدر تهدئة للنفس وتسلية لها عند المصيبة..

فينبغي على المسلم عند المصيبة أن يوقن بأنّ هذا قدر الله سبحانه.

كما قال عزّ وجلّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2]، أي اعلموا أنّ المصائب مقدّرة قبل خلقكم، وقبل خلق المصيبة نفسها، فلا تحزنوا على ما فات، ولا تفرحوا بما هو آت.

وفي ذات الوقت لا يصحّ للمؤمن أن يلوم ربه، فإنّ الربّ- جلّ وعلا- لا يسأل عمّا يفعل؛ فلا يُلام الربّ، ولا ينبغي أن يلام، لأنّه الربّ ونحن العبيد، يفعل بنا ما يشاء، هذا من جانب، ومن جانب آخر: لأنّه ما نزلت بنا مصيبة إلّا بسبب بعض معاصينا، ويغفر الله ويعفو عن الكثير، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾[3].

---

(١) صحيح مسلم (٨/ ٥٠).

(٢) سورة الحديد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٠. سورة فاطر، الآية: ٤٥

... يؤاخذنا ببعض ذنوبنا، ويعْفو عن أكثرها، وإلّا لو أنّ الله آخذنا على كلّ خطيئة نعملها لعمّت المصائب حتّى تهلك الأرض بمن عليها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾[1].

إذًا العبدُ يخطئ، والربّ يبتلي بسبب بعض الخطايا.. فلا يظلم الربّ عباده.. والعبد ينبغي أن يتصبر على كلّ مصيبة بأنّها مقدرة عليه ويستغفر الله من ذنبه.

وهكذا صنع آدم، فإيمانه بأنّ المصيبة مكتوبة (نزوله إلى الأرض) أعانه على الصبر، ومع ذلك لم يجعله يستمرّ على الخطأ، إنّما علم أنّ المصيبة بسبب خطئه فاستغفر منه، كما قال تعالى عنه وعن زوجته: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2].

قال ابن القيم: «والاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضرّ في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته، كما فعل آدم.. فإذا أذنب الرجلُ ذنبًا ثمّ تاب منه توبة نصوحًا ولامَه غيرُه عليه حَسُن منه أن يحتجّ بالقدر؛ أمّا الموضع الذي يضرّ الاحتجاج بالقدر ففي الحال والمستقبل كأن يرتكبَ العبد فعلًا محرمًا أو يترك واجبًا، ويستمرّ على ذلك،

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

فإذا نصحه ناصح أو لامه لائمٌ احْتج بالقدر وقال: هذا مكتوب عليَّ.. فهذا لا شكّ باطل، ولا يصحّ من عاقل، ومن فعل ذلك كان أشبه بالمشركين الذين داموا على شركهم وماتوا عليه، وكان شعارهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، فكأنّ احتجاجهم بالقدر استدلالٌ منهم على صحّة فعلهم، وهذا لا يقول به عاقل».

ولقد وقع الاحتجاج بالقدر من عليّ وفاطمة، كما في الصحيح عن عَليَّ بْنَ أَبِي طَالِب أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ الله- ﷺ- طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ- عَلَيْهِ السَّلاَمُ- لَيْلَةً، فَقَالَ أَلا تُصَلِّيَان، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ثم سَمِعْتُهُ وَهْوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهْوَ يَقُولُ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1]. وهذا احتجاج صحيح إذ النّائم غير مفرط، والقلم مرفوع عنه، واحتجاج غير المفرط بالقدر جائز.

ومَن هذا الباب قال ﷺ: «وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدّرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[2].

***

(١) متفق عليه، صحيح البخاري- حسب ترقيم فتح الباري - (٢ / ٦٢)، صحيح مسلم (٢ / ١٨٧).

(٢) صحيح مسلم (٨ / ٥٦).

الفصلُ السّادس

الإحسان

الإحسان هو: فعلُ ما هو حَسن، أو فعل ما ينبغي فعلُه من المعروف مراقبةً لله تعالى وابتغاء مرضاته، وهو معنى قول النّبيّ ﷺ: « الإحسان: أنْ تعبد الله كأنّك تراه فإنْ لم تكن تراه فإنّه يراك..»[1].

الإحسانُ أعلى مقامات الدّين، وهو يعني مراقبة الله تعالى في السّر والعلن، والإخلاص له في القول والعمل.

وقد قال النبي ﷺ: «كأنك تراه»، ولم يقل: فإنّك تراه، لأنّ الله- عزّ وجلّ- لا يراه أحدُ في الدنيا، لقوله ﷺ: «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَمُوتَ»[2]؛ وستكون أعظم مكافأةٍ لأهل الإيمان رؤيةَ الله- عزّ وجلّ- في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3].

ويحرم من هذا الفضل جميعُ المكذبين كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[4].

نسأل الله تعالى أن يمتعنا بلذة النظر إلى وجهه الكريم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح مسلم (٨/ ١٩٣).

(٣) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٤) سورة المطففين، الآيات: ١٥: ١٧.

الإحسانُ من صفات الله تعالى:

الإحسانُ صفةٌ لله تعالى، ظاهرة في جميع أفعاله، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[1].

وعلى المسلم أن يتّصف بهذه الصفة ويتعامل مع جميع الخلق بالإحسان، ابتداءً بالوالدين، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾[2].

ثمّ الأقارب، والجيران والضعفاء (الفقراء والمساكين) قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[3].

ثمّ المجتمع الّذي يعيش فيه الإنسان حتى تشمل المخالفين، لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[4].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٦.

(٤) سورة المائدة، الآية: ١٣.

ولا تغلق الدائرة فقط على البشر، بل يمتدّ محيطها ليشمل كلّ شيء في الحياة من نبات أو حيوان أو جماد، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

ولقد وردَ في الحديث أنّ النبي – ﷺ – قال: «غُفِرَ لامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ قَالَ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ فَنَزَعَتْ خُفَّهَا فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ»[2].

وبالجملة.. فقد أمر المسلمُ بالإحسانِ في كلّ شيء، حتى مع الحيوانات المتوحشة التي تمثل تهديدًا للإنسان، فتُقتل بإحسان، وحتى تلك البهائم والأنعام التي أباح الله للإنسان أكلها فتذبح بإحسان، يدلّ على ذلك قول رَسُولِ اللهِ ﷺ:

«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كلّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَه»[3].

***

(١) سورة الحجرات، الآيتان: ١٤، ١٥.

(٢) صحيح البخاري (٤ / ١٥٨).

(٣) صحيح مسلم (٦ / ٧٢).

الفصلُ السّابع

العبادةُ وأسئلةٌ مصيرية

السّؤال الأوّل: ما هي حقيقة العبادة؟

السّؤال الثّاني: لماذا نعبد الله؟

السّؤال الثّالث: لماذا نعبد الله تعالى وحده؟

السّؤال الرّابع: بأي شيء نعبد الله تعالى؟

أوّلًا: حقيقةُ العبادة:

العبادةُ في اللغة: هي مصدرٌ لفعل عبدَ يعبُد عبادة، أي: أطاع يطيع طاعة.

واصطلاحًا: اسمٌ جامع لكلّ ما يحبّه اللّٰه ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظّاهرة»[1].

والعبادة نوعان:

عبادةٌ بالتّسخير: وهي للإنسان والحيوانات والنّبات. قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[2].

عبادةٌ بالاختيار: وهي لذوي النّطق والعقل، وهي المأمور بها في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[3].

- العبادةُ مبنيّة على أمرين:

الأمرُ الأوّل: المحبة التّامة لله تعالى.

محبة لله تسبقُ جميع المحابّ، يقدّم بسببها أمر الله تعالى على هواه وشهواته راغبًا فيما عند الله تعالى من الخير العميم والثواب الجزيل، وفوق ذلك رضاه سبحانه وتعالى.

---

(١) العبودية لابن تيمية، ص:٥.

(٢) سورة مريم، الآية :٩٣.

(٣) سورة البقرة، الآية :٢١.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١).

محبّةٌ تجعله يحبّ كلّ ما يحبّ الله، ويبغض كلّ ما يُبغض الله، فيحبّ الطاعة، ويكره المعصية ويؤدي العبادة عن حبّ، وبإخلاص لله تعالى.

إنّ المؤمن يتميّز عن غيره بأنّه يحبّ الله تعالى حبًّا عظيمًا لا نظيرَ له، ثمّ تأتي محبته لرسول الله تعالى في المقام الثاني، ثمّ يأتي حبه لأهله وولده وإخوانه.. إلخ، بعد ذلك، فهو ليس عديمَ العاطفة لكنه عبد لله، وحبه لله ثمّ لرسوله أعظم من حبه لغيرهما.

ومَن كان كذلك أحسّ للإيمان بحلاوةٍ كما روى أَنَس، عَن النَّبيِّ - ﷺ - قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢).

إن علامة الحبّ الصادق لله تعالى الطاعةُ المطلقة لله ورسوله، والإقرارُ بكلّ ما شرع من أوامر ونواهٍ.

وليسَ معنى هذا أن المحبّ سيصير معصومًا من المعصية..

---

(١) سورة التوبة، الآية :٧٢.

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري (١ / ١٠)، صحيح مسلم (١ / ٤٨).

ربّما يقع المحبّ في المعصية غفلة أو سهوًا أو نسيانًا، لكنه سرعان ما يعود به الحبّ إلى ساحة الإيمان، ويدفعه الحبّ إلى العودة السّريعة إلى الله تعالى معلنًا ندمَه على ما فرّط في جنب الله عزّ وجلّ، ولا يخرجه ذنبُه الذي وقع فيه من غير إصرار من دائرة المحبّين المتقين ما دام قد رجع إلى الله تعالى سريعًا.

وفي هذا يقول المولى سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾[1].

ولقد تحدّث الله- عزّ وجلّ- حديثًا مفصلًا عن المتقين، وبيّن أن منهم مَن يظلم نفسه، أو ربما يفعل الفاحشة، لكن سرعان ما يعودُ إلى ربه خاشعًا متضرّعًا مستغفرًا، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَـٰمِلِينَ﴾[2].

الأمرُ الثّاني: التعظيمُ التّام له سبحانه

ويحصلُ هذا بتعظيم أمْره ونهيه، والقيام بشرعه حبًّا لذاته العليّة، وخوفًا من غضبه وسخطه وعذابه الذي أعدّه للعاصين، تعظيمًا يؤدّي إلى تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، رغبًا ورهبًا.

(١) سورة الأعراف، الآية :٢٠١.

(٢) سورة آل عمران، الآيات :١٣٣: ١٣٦.

إنّ العابد هو مَن يحبّ الله- عزّ وجلّ- غايةَ الحبّ فيفعل ما يرضيه لأنّه يحبّه ويحب ورضاه، وهو كذلك مَن يعرف الله حقّ المعرفة يخشاه غاية الخشية، ويعظّمه غاية التعظيم، وينقاد لأوامره ونواهيه غاية الانقياد

وبالجمعِ بين الحبّ والخشية، والرجاء والخوف؛ يكون العابد بذلك قد سار على منهَج الأنبياء الذين كانوا يعبدون الله تعالى جامعين بين غاية الحبّ وغاية التعظيم، وبمعنى آخر بين غاية الرجاء وغاية الخوف، وبمعنى ثالث بين الرّغبة والرهبة، وهو تعبير القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾[1].

إنّ حبًّا من غير انقيادٍ لا يسمّى عبادة، وإنّ انقيادًا من غير حبّ لا يسمّى عبادة، ولا بدّ للعابد أن يجمع بينهما.

ومن الخطأ أنْ يقول الإنسان: أنا أعبدُ الله لذات الله، لا خوفًا من ناره، ولا طمعًا في جنته! ووجه الخطأ في ذلك أنّ الله تعالى الذي خلقنا يعلم سبحانه وتعالى طبيعتَنا البشرية، فجعل الجنة جزاءًا للطائعين، والنار عقوبةً للعاصين، ودعانا إلى العمل بأسلوبِ الترغيب، ونهانا عن المعصية بأسلوب الترهيب لعلمه سبحانه أنّه لا يصلح مع البشر إلّا هذا الأسلوب الترغيب والترهيب، ففي الترغيب في الطاعة على سبيل المثال يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١].

وفي التّرهيب من المعصية (الظلم على سبيل المثال) يقول سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[٢].

وقال تعالى مخوفًا: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾[٣].

ثمّ إنّ الإنسان مهْما عمل لا يمكن أن يدفع ثمن الجنة، ولقد قال رسول الله- ﷺ- لأصحابه الكرام، وهُم خيرُ هذه الأمّة على الإطلاق- بعد نبيها: لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله! فسلَّموا بهذا، لكنّهم سألوا رسول الله-ﷺ- فقالوا له: ولا أنت يا رسول الله؟ فقال النبيّ الكريم ﷺ: «ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمته»[٤].

ولعلّ سائلًا يسأل: فلماذا العمل؟ نقول له:

---

(١) سورة الصف، الآيات :١٠: ١٣.

(٢) سورة الكهف، الآيات :٢٩.

(٣) سورة الزمر، الآيتان :١٥، ١٦.

(٤) متفق عليه.

نحن نعملُ قدْر استطاعتنا، ونجتنّب المعاصي قدر إمكاننا؛ لنرضي اللهَ تعالى، لعلّنا نفوز برحمته فيدخلنا الجنة ويعافينا من النار.

فالقانون الرباني: العمل ثمّ العمل، ووردت آياتٌ كثيرة في بيان أنّ الجزاء على العمل.. من بينها قول الله تعالى:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾[1].

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[2].

﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾[3].

﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[4].

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[5].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[6].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾[7].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٢) سورة غافر، الآية: ٤٠.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٥) سورة طه، الآية: ٧٥.

(٦) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

(٧) سورة الأنبياء، الآية: ٩٤.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾[1].

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2] .

إنّ هذه الآيات وأمثالها لا تدع مجالًا للشكّ في أنّ الله تعالى يجازي الإنسان على عمله، لكن...

لما كانت نعمُ الله على الإنسان لا تعدّ ولا تُحصى.. ومهما عمل الإنسان من عمل لا يمكنه دفع ثمن شيء منها؛ فإنّ الله يتفضّل على العباد المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويدخلهم الجنة برحمته.

ومع أنّ رحمته- سبحانه وتعالى- وسعَت كلّ شيء، لكنّه لا يكتبها إلّا لمن اتقى وآمن وعمل صالحًا، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

ثانيًا: لماذا نعبدُ الله؟

للإجابة على هذا السّؤال؛ علينا أن نتذكّر ما سبق ذكرُه في شرح معنى شهادة أن لا إله إلّا الله؛ حيث ذكرْنا أنّ الله تعالى:

• متفرّد بالخلق.

فالله عزّ وجلّ وحده هو الخالق، ولا خالق غيره.

• ومتفرّد بالملك:

فالله تعالى مالك كلّ شيء، ولا مالك سواه، فخلق وملك، ولم يتنازل عن ملكه لأحد، إنّما يعطي مِن ملكه مَن يشاء ويمنع مَن يشاء.

• ومتفرّد بالتّدبير:

الله متفرّد- سبحانه وتعالى- بالتدبير، وأنّه المتصرف وحده في الأمور، وأن كلّ شيء يسير بأمره، ووفق تدبيره سبحانه.

• ومتفرّدٌ بالعطاء والمنع والنفع والضر:

فالله تعالى وحدَه هو الذي يملك الضرَّ والنفع، والعطاء والمنع؛ لأنّه وحده مالك الملك.

ولقد نعى اللهُ على المشركين عبادتهم لغير الله، وهُم مهْما كانوا ملائكة أو بشرًا فضلًا عن الحجارة.. لا يملكون لأنفسهم فضلًا عن غيرهم ضرًّا ولا نفعًا، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1].

(١) (سورة المائدة، الآية: ٧٦).

وقال تعالى: ﴿.. قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[2].

فاللهُ تعالى هو المستحقّ للعبادة دون سواه؛ لأنّه هو مَن خلق وملك ورزق ودبر وأعطى ومنع.. إلخ.

ثالثًا: لماذا نعبدُ الله تعالى وحدَه دون سواه؟

ممّا سبق ندرك الجواب..

فالله تعالى وحدَه هو الذي يخلق ويرزق، ويعطي ويمنع، ويضرّ وينفع.

(١) (سورة الزمر، الآية: ٣٨).

(٢) سورة الأعراف، الآية :١٩١: ١٩٨.

ولهذا جاء في القرآن الكريم الأمرُ بعبادة الله لأنّه الخالق والرازق، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]،

إذًا:

يجب إفرادُ الله تعالى بالعبادة لأنّه وحده الذي يرزق ويخلق، ويعطي ويمنع، ويضرّ وينفع، وغيره لا يخلق ولا يرزق، ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا.

والأمرُ بعبادة الله تعالى وحدَه دون سواه صدرَ للإنسان على مر العصور، والله تعالى أرسل الرسل جميعًا ليقوموا بدعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾[3].

وأخبرَ عن العديد من الأنبياء أنّهم دعوا أقوامهم لعبادة الله، فقال تعالى عن سيدنا نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان :٢١، ٢٢.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان :١٦، ١٧.

(٣)سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٩.

وقال عن نبي الله هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[1].

وكذلك نبي الله صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[2] .

وأخذ على بني إسرائيل الميثاقَ بعبادته وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[3].

وأمر نبيّه أنْ يقول لهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[4] .

بل أخبر- سبحانه وتعالى- أنّه ما خلق الإنسَ والجنّ إلّا لأجل أن يعبدوه تعالى وحده، فقال تعالى:﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

(٣) سورة البقرة، الآية :٨٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية :٥٦.

(٥) سورة الذاريات، الآية :٥٦.

رابعًا: بأيّ شيء نعبد الله تعالى؟

يستحيلُ أن يعرف الإنسانُ ما الذي يرضي الله، وما الذي يسخطه، ولا يمكن للإنسان أن يعرف كيف يعبدُ الله؛ إلّا من خلال أنبياء الله ورسله.

لذا أرسل الله الرسلَ والأنبياء ليعلّموا الناس ما يجب عليهم نحو خالقهم وكيف يعبدوه.

ومِن هنا:

لا يصحّ أن يُعبَد الله- عزّ وجلّ- إلّا بما أمر وشرع على لسان نبيه الكريمﷺ، ولا يقبل من العبد أن يتقرّب إلى الله تعالى على غير هدى النبي-ﷺ- لأنّه بذلك يكون مبتدعًا.

ولقد حذّر النبي- ﷺ- من الابتداع، وبين أنّ كلّ عمل على غير هديه-ﷺ- يردّ على صاحبه، قال ﷺ:

«**مَن عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١).

ولقد وضع الله تعالى شرطيْن لكلّ عمل حتى يكون مقبولاً، فقال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٢).

وهذه الآية توضّح أنّه على العبد أن يحقّق شرطين في كلّ عمل يعمله إن كان حقًّا يريد لقاء الله ويرجو مثوبته:

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري (٣/ ٩١)، صحيح مسلم (٥/ ١٣٢).

(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

أولهما :كون العمل صالحًا.

ولا يوصف العملُ بالصلاح إلّا إذا كان على هدي النبي ﷺ.

ثانيهما: كوْن العمل لله- عزّ وجلّ- خالصًا.

فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي:

«أنا أغنى الشركاء عن الشّرك، مَن عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[١].

وقال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾[٢].

فإذا تحقّق هذان الشّرطان في أيّ عمل، حتى ولو كان مِن أعمال العادات كان عبادة لله تعالى، وبهذا يستطيع المسلمُ أن يحيا يومَه كلّه لله، ليله ونهاره، صباحه ومساءه، جدّه ولعبه، يحقق قول الله تعالى:

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[٣] .

***

(١) صحيح مسلم (٨/ ٢٢٣).

(٢) سورة الزمر، الآيتان :٢، ٣.

(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدّمة	٧
الفصلُ الأوّل: وحدة الدين	٩
تعريفُ الدّين	٩
ما يترتّب على اعتناق الدين	١١
مهمّة الإنسان في الحياة العبادة وعمارة الأرض	١١
الإنسانُ مفطورٌ على العبودية وحبّ الحياة	١٢
عناصرُ الدين	١٤
الدّين واحد والشرائع متعددة	١٧
الفصلُ الثّاني: الإسلام	٢٧
تعريفُ الإسلام	٢٧
عالميّة الإسلام	٢٩
شمولُ الدين لجميع مناحي الحياة	٣٤
تكاليفُ الإسلام ثلاثة	٣٨
أركان الإسلام	٤٠
الرّكن الأوّل: الشهادتان	٤١
معنى شهادة أن لا إله إلّا الله	٤٢
من أهمّ الثمرات التي يجنيها المسلم نتيجة توحيده	٤٦
معنى شهادة أنّ محمدًا رسول الله	٤٨

طاعته ولزوم سنته والمحافظة عليها ٤٩
محبّته ﷺ ٤٩
تعزيره، ﷺ، وتعظيمه ٤٩
مكانة الصلاة في الدين ٥٢
متى فرضت الصلاة ؟ ٥٤
حكم تارك الصلاة ٥٥
الرّكن الثّالث: الزّكـاة ٥٧
تعريفُها ٥٧
مكانةُ الزكاة في الدين ٥٧
الرّكن الرّابع: صيام شهر رمضان ٦٠
تعريفُه ٦٠
مكانةُ الصوم في الدين ٦٠
فضلُ الصوم ٦١
الحكمةُ من فرض الصوم ٦٣
الصومُ مدرسة الأخلاق ٦٤
الرّكنُ الخامس: حجّ بيت الله الحرام ٦٦
تعريفه ٦٦
مكانة الحجّ في الدين ٦٦
الفصلُ الرّابع: الإيمان ٧١
(١) تعريفُ الإيمان: ٧١
• عناصر الإيمان: الإيمان يزيد وينقص: ٧٢
• الفصلُ الخامس: أركانُ الإيمان ٨٣

• للإيمان أركان ست، وهي: ٨٣
• الإيمانُ بالله تعالى........................ ٨٤
• الإيمان بوجود الله تعالى أمرٌ فطري ٨٤
• الإبداع في الكون دليلٌ على وجود الله ووحدانيته ٨٧
• لكلّ حادث محدث دليل آخر ٨٨
• الإيمانُ باليوم الآخر ٨٩
• أسماءُ اليوم الآخر في القرآن الكريم ٩١
• الأمرُ بالاستعداد ليوم القيامة ٩١
• للإنسان حيوات ثلاث: ٩٣
• الحياة الدنيا: ٩٣
• الثانية: حياة البرزخ: ٩٥
• الثّالثة: الحياة الآخرة: ٩٦
• ثمرةُ الإيمان باليوم الآخر، واعتقاد قربه: ٩٨
• الإيمانُ بالملائكة ٩٩
• أصل خلقتهم: ١٠٢
• من صفاتهم: ١٠٣
• الإيمانُ بالكتب ١١٠
• الإيمانُ بالرسل ١١٩
• تعريف النبي والرسول والفرق بينهما ١١٩
• وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل ١٢١
• الإيمانُ بالقدر خيره وشرّه ١٢٦